

أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية

لفضيلة العارف بالله تعالى

سيدي الشيخ / محمد الحافظ التجاني المصري

الطبعة الأولى الجمعة ٢٥ رمضان سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،،

عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نُنصِرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ نُنصِرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ : تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ)) رواه الإمام أحمد والنسائي .

وقد نسب قوم إلى كثير من الصالحين أموراً هي أكاذيب وفري ، وهؤلاء الصالحون أبعد الناس عن هذه الفري وتلك الأكاذيب ، وكم افتري أمثال هؤلاء على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فريات وأكاذيب وأوهاماً زينها الشيطان في أذهان هؤلاء القوم المفترين ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا يعتقدها علماء المسلمين ولا عامتهم .

كما أن منهم من يقلب الحقائق أو يدلس ، ومنهم من يأتي بفقرات مقتضبة على نسق قوله تعالى : (لَا تُقْرَبُوا الصَّلَاةَ) ^(١) ويترك باقى الآية ، وذلك كى تفى بأحقاده وادعاءاته الباطلة ، وفى هؤلاء وأمثالهم يقول مولانا الحافظ رضى الله عنه : " وكم خطأ هؤلاء الصبية أفاضل من السلف ، بل من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ويصعب عليهم تخطئة فلان وقد اعتقد خلاف ما عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى الخلق والسلف الصالح ، أهؤلاء يحترمون ؟ لا والله " انتهى .
نسأل الله لهم الهداية ، مع أن القاعدة العلمية أن الأصل فى المؤمن البراءة ، ومتهمه هو المطالب بإثبات تهمته ، وحال المؤمن يحمل على الصلاح .

وفى هذا الكتاب ينقل شيخنا الشيخ محمد الحافظ التجانى عقيدة السادة الصوفية للإمام العالم الجامع بين الشريعة والحقيقة أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رضى الله عنه ، وكذا عقيدة العارف الكامل الإمام محيى الدين بن عربى رضى الله عنه ، وكلها عقيدة السلف الصالح قاطبة .

كما يوضح فضيلته رضى الله عنه الشفاعة التى يعتقدها المسلمون ، وكذا التوسل بحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنازل السير إلى الحق عز شأنه ، وأن غاية الصوفى الوصول إلى قوله تعالى :

١ - سورة النساء ، الآية ٤٣ .

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(١) ، باتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كما فى قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(٢) .

ويتحقق ذلك بمصاحبة الصالحين امثالاً لأمر الله عز وجل فى كتابه العزيز : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)^(٣) ، أى بالتعاون على البر والتقوى والتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل والقربات مراعيًا فى ذلك أن الله مطلع عليه يسمعه ويراه ، وتلك حقيقة تزكية النفس وتطهيرها من أدران الهوى والشيطان ، قال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)^(٤) .

ولو بُحِثت أقوال السادة الصوفية وفُهِمَت على حقيقتها فليس إلا الروح العملية والواقعية التى ينبغى أن يتصف بها المسلم المحب لربه الحب الصحيح وهى روح كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فجزى الله شيخنا خيراً بما قدم للمكتبة الإسلامية ما يكشف حقيقة التصوف الإسلامى الصحيح ، ويرفع بذلك عن النفوس الحائرة بين الحق والباطل حجب الجهل ، فإن العلم يرفع نقيصة واحدة وهى الجهل وتبقى باقى النقائص كالبخل والحقد والحسد والكبر وغيره كثير من النقائص ، وكلها تحتاج إلى تزكية وترويض وتطهير حتى تعود لتلك النفوس سيرتها من الصفاء والطهر والعفاف والغنى بالله عما سواه ، وتلك غاية الغايات التى يعمل لها أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية ، ومن لم يكن كذلك فليس بصوفى وليبحث له عن اسم يليق به .

وأخيراً أترك للقارئ الكريم أن يتبين وحده خلاصة التجربة الصوفية الصافية التى عاشها الشيخ وتحدث عنها علماً وحالاً وذوقاً وتوجيهاً وإرشاداً ، سائلاً المولى جل وعلا أن يفقهنا فى الدين ، وأن يفتح علينا فتوح العارفين ، وأن ينفع به كل قارئ يطلب فيه علماً يريد به وجه الله عز وجل ، وأن يعافينا فى ديننا وأبداننا ، وأن يختم بالصالحات الباقيات أعمالنا ، وعلى الله قصد السبيل .

أحمد محمد الحافظ التجانى

٢ — سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

٣ — سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

٤ — سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

٥ — سورة الشمس ، الآيات ٧ — ١٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً جامعاً لسائر وجوه المحامد ، سبحانك اللهم أنت كما أثنت على نفسك لا نخصي
ثناء عليك ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على صفيك الأكرم ، الذي شققت له من حمدك اسماً ، فكان
مظهر الحمد الجامع ، فهو بك محمد ومحمود ، ولك حامد ، علماً وعملاً وحالاً ، صورة الكمال
الخلقى الأعلى ، الهادى إلى صراطك المستقيم ، أحمد الوجود لذاتك المنزهة ، اللهم صلِّ وسلم وبارك
عليه صلواتك الأزلية الأبدية ، وعلى آله وصحبه وسائر المؤمنين ، آمين.

البحث عن الحقيقة ومنزلة الصوفية منه

الناس قسماً :

١ - فريق منصرف إلى مصالحه الشخصية التي تنحصر في المأكل والمشرب وحاجات الجسد ، والسيطرة التي تتجلى في الحيوان الأعجم ، لا يفكر في مبدئه ولا متتهاه ، ولا يبحث عن حقيقة الحياة التي جاء إليها أو جاءت إليه ، فهو في عداد الغافلين ، وهذا الفريق قد أسقطه الحكماء من حساب الإنسان المفكر لأنه اختار لنفسه عدم التفكير .

٢ - وفريق فكر في مبدئه ومعاده وحكمة وجوده وموته ، وبحث عن حقيقة هذا الوجود فرداً ومجموعاً ، وهؤلاء قد افرقوا في سبيل الوصول إلى المعرفة إلى طوائف :

أ - أحدها سلك طريق الحس فاطمأن إلى ما دخل في نطاق الحس الإنساني ، والأصول العلمية تقتضى ألا ينكر ما لم يدرك بالحس ، حيث لا خلاف في أن هناك من الحقائق ما لم يدرك ، وإذا فهو مؤمن - في الجملة - بحقائق وراء الحس لا يستطيع تحديدها ، وليس هذا الموقف مما يقنع به من يقلقه الطمع للوصول إلى يقين يريح القلب .

أما من جحد ما وراء حسه وأنكر وجوده ، فذلك الذي أسقط نفسه من عداد العلماء ، فلا يعتد به فإنكاره كالعدم .

ولاشك أن العلم الحسى لا يورث اليقين ، فنظرياته دائمة التغير ، وحتى لو سلمنا أن ما يستحدث من النظريات يقربنا إلى الحقيقة ، فلن يزال الموقف هو هو ، فليس من اختصاص هذه النظريات الجزم بالحقائق ، ولن يرضى بهذه السبيل عقل برهاني إلى ما تطمئن به النفس من اليقين القطعى الذى لا يتطرق إليه ريب بحيث يكون فيه آمناً من التغير والتبديل .

وكل سبيل في البحث لا تورث اليقين هي مذهب أقل ما فيه من الأضرار أنه يشيع الشك في حياة صاحبه ويعدمه الراحة ، ومهما أفنع نفسه ليوهمها راحة في الشك ، فلن يجد إلى الراحة سبيلاً ، لأن الشاك لا يعرف شيئاً ، وهو معترف - في قرارة نفسه - أنه ليس على يقين بشئ ، وتسمية هذا علماً لا يلتئم مع القواعد العلمية لأن العلم يقين ، وإذا كان الظن لا يفيد علماً ، فكيف بما لا يبلغ

درجة الظن ؟ (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)^(٦) .

والحقيقة إما نفى وإما إثبات ، فالشاك لم يصب الحقيقة بإجماع العقلاء حتى عند نفسه ، فلو فرضنا أن الحق كان مع النفاة فليس هو منهم ، وإن كان مع المثبتين فليس منهم ، فهو لا يعلم شيئاً ولا يقول شيئاً ، ورسالته رسالة عدمية باطلة ليس لها وجود ، وأصحاب فلسفة الشك ليسوا فى عداد العلماء المحققين باتفاق جميع الحكماء ، ما لم ينتقلوا من الشك إلى اليقين .

ب - وسلك آخرون طريق العقل ، بحيث يفرضون جميع الوجوه التى تحتملها النظرية التى يبحثونها ثم يقلبونها على جميع نواحيها على أصول الاستدلال اليقينية الذى يرجع إلى القطعيات - بحيث لا ينقلب إلى شك بحال - حتى يصلوا إلى نتيجة يقينية .

والعقل البرهانى لا يسمح أن يدخل فى نطاقه قضية محتملة ، إذ كل ما يتطرق إليه الاحتمال لا يعتبره برهاناً ، وهؤلاء هم الفلاسفة الحكماء .

ج - وسلك آخرون الطريق الروحى ، بالتوجه إلى مبدأ الوجود ومصدره - الحق سبحانه - والاستمداد من كماله الذى لا نهاية له ، ولم يقفوا دون الوصول إلى الحقيقة من حيث هى بحيث يجمعون بين نتاج العقل البرهانى الذى لا يتطرق إلى قضاياها احتمال وبين الشهود الروحى الذى قرره الحس فى أسمى درجة من صفائه عن أشواب الأوهام ، وهؤلاء من الصديقين اتقوا الله فعلمهم الله وقد اصطلح العلماء على تسميتهم " الصوفية " ، فإنهم عند تخصص كل فى بحث نواحي الدين - من عقائد وأحكام وأخلاق وفيوض ربانية ومنها كشف مساتير الحقائق - سمو الباحثين من العلماء فى العقائد " علماء التوحيد - المتكلمين " ، والباحثين فى الأحكام من حلال وحرام وواجب " فقهاء " والباحثين فى الأخلاق والفيوض الربانية وتربية الضمير والسمو الروحى " صوفية " .

أما البحث عن اشتقاق لفظ صوفى ، هل هو من الصفاء أو من الصوف ؟ فلا نعه ذا أهمية عملية ، مادام وصف الصوفى الكامل هو هو المذكور فى الحديث القدسى : ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، إلخ الحديث)) .

٦ - سورة النجم ، الآية ٢٨ .

وهذا وصف الصديق : قال الشيخ ابن تيمية فى رسالته " الصوفية والفقراء " ص ١٨ طبع المنار سنة ١٩٢٨ م عن اصطلاح القوم : " وهم يسرون بالصوفية إلى معنى الصديق " ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون ، ولا مشاحة فى الاصطلاح .

فمن جمع بين صفاء العلم فى أعلى مرتبة من الشهود الجامع لعلم اليقين وعين اليقين ، وصفاء العمل فى أسنى مرتبة من الإخلاص وصفاء الحال فى ذروة الصدق والحب الإلهى والمحبوبية ، فادعه من الربانيين ، أو قل من الصديقين ، أو ادعه " صوفياً " فلا جناح عليك ، فالمسمى واحد وإن اختلفت الأسماء .

والمنكرون للروح لا دليل عندهم على عدم وجودها - لا عقلاً ولا حساً - ولن يستطيعوا إقناع أنفسهم ولا غيرهم من العقلاء بأنها غير موجودة ، وإن لم يدركوها بحسهم فقد أدركها غيرهم ، وليس ذلك النفى من اختصاصهم ، فإنهم باعترافهم لا يعلمون شيئاً من الأمور الروحية ، فحكمهم على ما يجهلون غير معتبر علمياً ، وليس من المعقول أن مريضاً يريد أن يتداوى فيذهب إلى جاهل بالطب ليدأويه مع أنه على يقين بجهله ، فرأيهم فى هذه الناحية هو والعدم سواء .

وليس من لم ير بحجة على من رأى ، وآثار الروح ممكن إدراكها بالحس ، وقد ثبت إدراك بعض الناس لأشياء فى الأرض كلها لم يسبق لهم معرفتها من أى طريق من طرق الحواس ، والثثرة بأنه ليس هناك وجود إلا للمادة قضية لم يقم عليها أى دليل ، والعقل ليس لديه مانع من وجود غير مادى .

وكنه المادة إلى الآن لم يدرك ، ووجود آثار الروح أصبح أمراً حسياً ، وسعة إدراكها كذلك ، فلا يسع عقلاً إنكارها .

حتى ولو زعم البعض أن الروح من المادة ، وأنها مما يتحيز - أى يأخذ قدراً من الفراغ - فلها خصائص غير المادة الخاضعة للقوانين الحسية الظاهرة .

ومعنى هذا الفرض - وإن كنا لا نقول به - أن ما نسميه بالمادة له حال كثافة وحال لطافة ، فالمادة فى حال كثافتها لها الخصائص المعروفة ، والمادة فى أرقى صفاتها روح لها من الخصائص ما يتفق مع

الأمور الروحية .

والماديون وإن لم يدركوا تلك الآثار الروحية فهم فى طريق إدراكها ، وقد سبقهم روحانيو الإسلام وغيرهم إلى ذلك الإدراك .

وحتى على هذا الفرض المادى للروح ، يتحطم المذهب المادى الذى يزعم أن الوجود أصله الجهل، فإن العلم لم يأت للروح من طريق الحواس كما زعموا ، وإنما مرجعه إلى حقيقة تسمع وتبصر وتدرى بمعزل عن هذه الحواس المادية الظاهرة .

وإذاً فهناك علم لا يرتبط بالصورة المادية الجاهلة التى زعموها بمحض الحرص الذى لا يستند لسلطان .

والشهود الروحى لا يحتاج لإثبات عند أهله ، فإنه من الأمور الضرورية اليقينية المحسوسة التى لا يتطرق إليها شك ، ومثل المتقيدين بالحس المادى الظاهر بالنسبة لأولئك القوم كالأعمى والبصير ، والأصم الذى ينكر قصف المدافع ، ونغمات الموسيقى بالنسبة للسمع ، ومن ينظر بعين مجردة ومن يرى بمنظار معظم ، والاهتزازات الأثيرية التى لا يدركها الإنسان إلا بآلات حساسة دقيقة كانت خافية على الإنسان ثم ظهرت وظهر معها عوالم وحقائق كانت مستورة ، فإنكار الإنسان ما لم يصل إلى علمه من الجائزات بله فى التفكير وجهل عريق .

والمنصف لا يتردد فى الحكم بأن أهل الشهود الروحى هم خاصة العلماء وسادة الحكماء وصفوة الكمل من أهل الحكمة العلمية والعملية ، فقد شاركوا أهل الحكمة الظاهرة فى حكمتهم ، وأهل المباحث العلمية فى علمهم ، وأهل اللغة وأهل الفقه والمحدثين والمتكلمين والقراء والمفسرين ، فجمعوا سائر الفضائل والكمالات ، وزادهم ربهم على الجميع الشهود الذى لم يدركه غيرهم .

وليس من متحل متحقق بمكارم الأخلاق عملياً - على الأسس الصحيحة التى جاء بها الأنبياء عليهم السلام - يدانيهم فى الوجود ، فإن هذا موطن اختصاصهم الذى مزج حقائقهم وألقوا عصا التسيار فيه ، فوفوا مقامات الدين كله - الإسلام والإيمان والإحسان - وكانوا من الموقنين .

فهم أعلم الناس بدين الله وهم صفوة الله من خلقه رضى الله عنهم .

تكييف الأحقاد الاستعمارية للتصوف الإسلامى

كان المسلمون أمناء فيما نقلوه عن غيرهم من الأمم ، فنسبوا ما نقلوه إلى ذويه وكأن طابع التحرى سرى فى نواحيهم العلمية ، فلم يدعوا لأنفسهم ما ليس لهم ، بخلاف ما فعل الأوروبيون فى تراث العرب ، فكم من كتاب انتحله عالم أوروبى وليس له منه إلا وضع اسمه عليه مع تحوير فى الكتاب بسيط ، وقد شاعت الأحقاد الاستعمارية للأوروبيين أن تجرد الأمة العربية الكريمة من كل فضيلة ، وبما زعمت أن المسلمين نقلوا الفقه عن الرومان ، والتصوف عن الهنود والرهبان ، وهذه دعوى كاذبة بينة البطلان .

والعبادات - من صلاة وصيام وحج ووضوء وغسل بما فيها من دقائق - والمعاملات المعروفة فى كتب الفقه لا مصدر لها إلا القرآن والحديث ، والقرآن والحديث لا خلاف أن مصدرهما الوحيد هو الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن المسلمون فى حياته الشريفة قد اختلطوا لا بالهنود ولا بالرومان ولا بالفرس ، بغير خلاف بين المؤرخين ، والأفراد الذين تشرفوا بالإسلام فأنقذهم الله به من الوثنية - مع أننا لا نستطيع أن نعد منهم غير أفراد كصهيب وسلمان وبلال - كان هدفهم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانوا تابعين لا متبوعين ، وحياته صلى الله عليه وسلم معروفة كلها ، وعبادة الرسول سابقة لإسلام هؤلاء .

وللمأجورين على محاربة الإسلام من رسل الاستعمار المغتصبين الذين يسمون أنفسهم " مبشرين " خرافات يتعجب العقل منها ، ويسائل نفسه : كيف لا يستحى أولئك القوم من هذا البهتان الظاهر بطلانه ؟ وكيف يسميهم الناس عقلاء وهم أعطوا الناس الدليل الثابت على جهلهم البعيد ؟ .

فمن ذلك ما ادعاه مأجور منهم أن كعب الأحبار كان يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان يتذاكران معاً ، وفى هذا الدليل القاطع على أمرين :

١ - أن هؤلاء لا يستحيون من اختراع أكاذيب مختلفة فجوراً فى الخصومة ، وإنما صدر هذا عن ضعف الأخلاق فى جبلتهم .

٢ - وأنهم لا يقدرّون القراء الذين يقرؤون كتبهم ، يفرضونهم أغبياء مغفلين ، ولو فرضوهم عقلاء ممن يتحرون الحقائق لما اجترأوا على تعريض أنفسهم لسلسلة من الفضائح الثابتة .

فإن كعب الأحرار لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به ، وهو من اليمن ، ولم يهاجر إلى الحجاز إلا في زمن عمر رضى الله عنه ، ولذلك لا يعد في الصحابة ، وإنما هو فى عداد التابعين ، ولا حجة عند المسلمين إلا الكتاب والسنة .

وكذلك التهذيب الروحى ، وتزكية النفس علماً وعملاً ، والزهد ، والعبادة ، مصدرها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : " أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بَعَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ... إلخ الحديث " .

ورؤيا الأنبياء وحى ، فقبل أن يتعبد فى غار حراء كان متشرفاً من ربه بالنبوة فى وحى الرؤيا بالفعل ، ثم ألهم الخلوة ، وقد قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)^(٧) ، وهذا دليل الصوفية رضوان الله تعالى عليهم فى العزلة عن الخلق والانقطاع لعبادة الحق عز شأنه مدة من الزمن يتحقق للروح فيها أنسها بالحضرة العلية .

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، ثُمَّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نُصَفَّهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، وَزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا)^(٨) ، وكان صلى الله عليه وسلم دائماً على قيام الليل ، يذكر الله على سائر أحيائه ، ويدمن الصيام ، يمر عليه الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار ، وكل هذا مخرج فى الصحاح .

وأخذ عنه أصحابه ، وعنهم أخذ الزهاد والمتقشفون ، وحث أمته صلى الله عليه وسلم على قيام الليل ، والزهد فى الدنيا مع العمل ، وأن يأكل المرء من كسب يده ويتصدق من كسب يده . وقد أغرق فى الكذب من زعم أن للعبادة الإسلامية والزهد مصدرهاً غير الرسول صلى الله عليه وسلم .

٧ - سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

٨ - سورة المزمل ، الآيات ١ - ٤ .

عيش المصطفى صلى الله عليه وسلم وزهده

لم يختار الرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سبيل التوسع في حياته المنزلية ، وسار آله في سبيله ، وكان في تلك الحياة المتواضعة - عن اختيار ورضى - عزاء للفقراء من أمته صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن أفضلية المرء لا تكون بكثرة المال والجاه ، وإنما تكون بما تحقق به من كمال في نفسه وخير يكتسبه ويكسبه إخوانه ابتغاء وجه ربه عز وجل .

قال تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)^(٩) .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : ((يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب ، ثم سألتني عن رجل من قريش ، قال : هل تعرف فلاناً ؟ قلت : نعم يا رسول ، قال : فكيف تراه أو تراه ؟ قلت : إذا سألت أعطى وإذا حضر أدخل ، قال : ثم سألتني عن رجل من أهل الصفة ، فقال : هل تعرف فلاناً ؟ قلت : لا والله ما أعرفه يا رسول الله ، فما زال يجله وينعته حتى عرفته ، فقلت : قد عرفته يا رسول الله ، قال : فكيف تراه أو تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة ، قال : فهو خير من طلاع الأرض من الآخر ، قلت : يا رسول الله أفلا يعطى من بعض ما يعطى الآخر ؟ فقال : إذا أعطى خيراً فهو أهله وإذا صرف عنه فقد أعطى حسنة)) رواه النسائي مختصراً وابن حبان في صحيحه واللفظ له .

وعنه قال : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : ((يَا أَبَا ذَرٍّ انظُرْ أَرْفَعَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ حُلَّةٌ ، قَالَ : قُلْتُ هَذَا ، قَالَ : قَالَ لِي : انظُرْ أَوْضَعَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ أَخْلَاقٌ ، قَالَ : قُلْتُ هَذَا ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : لَهَذَا عِنْدَ اللَّهِ أَحْيَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مِائَةِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا)) رواه أحمد بأسانيد محتج بهم في الصحيح ، وابن حبان في صحيحه .

٩ - سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

وَعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : رَأَى سَعْدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ)) رواه البخارى والنسائى ، وعنه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ((إنما تنصر هذه الأمة بضِعْفَائِهَا بدعوتهم وصلاتهم وإِخْلَاصِهِمْ)) .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : ((ابْعُونِي ضِعْفَاءَكُمْ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضِعْفَائِكُمْ)) رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنَبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَيَّ رَبُّكُمْ فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى)) رواه أحمد ورواه رواة الصحيح ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : ((عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ دَهَبًا ، قُلْتُ : لَا يَا رَبُّ وَلَكِنْ أَشْبِعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا - أَوْ قَالَ ثَلَاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا - فَإِذَا جُعْتُ نُضِرْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ)) رواه الترمذى وحسنه .

وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : " لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ " ، وفى رواية " ولا رأى شاة سميطة بعينه قط " رواه البخارى .

وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُوعَ ، وَرَفَعْنَا ثِيَابَنَا عَنْ حِجْرٍ عَلَى بَطُونِنَا ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَجْرَيْنِ " رواه الترمذى .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " رَأَيْتُ عُمَرَ - وَهُوَ يَوْمئِذٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ رَفَعَ بَيْنَ كَتْفَيْهِ بَرَقَاعَ ثَلَاثَ لَبَدٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ " رواه مالك .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَعَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا حَتَّى قَبِضَ " ، وفى رواية قال أبو حازم : " رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَشِيرُ بِأَصْبَعِهِ مَرَارًا يَقُولُ : وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ مَا شَبِعَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا مِنْ خُبْزِ حَنْطَةَ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا " رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء ، وإنما كان أكثر خبزهم الشعير " رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : " مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- مِنْ خُبْزِ شَعِيرِ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- " رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية مسلم قالت : " لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين " .

وَعَنْ أُسِّ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ فَاطِمَةَ نَاوَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كِسْرَةً مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ فَقَالَ : ((هَذَا أَوَّلُ طَعَامِ أَكَلَهُ أَبُوكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)) رواه أحمد ، والطبرانى وزاد فقال : ((ما هذه ؟ فقالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : فذكره)) ، ورواهما ثقات .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أُنِيَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا بِطَعَامِ سُخْنٍ فَأَكَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا دَخَلَ بَطْنِي طَعَامٌ سُخْنٌ مُنْذُ كَدَا وَكَدَا)) رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، والبيهقى بإسناد صحيح .

وعنه صلى الله عليه وسلم ، وعن ابنته الزهراء عليها السلام ، وصنوه أمير المؤمنين رضى الله عنه وآله وأصحابه ، فى عزوفهم عن الدنيا وإنفاقها بغير حساب ما يملأ الدفاتر ، وكان غناهم بالله ، وكانت الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وضمن بأله على الدنيا ، ولم يكن ذلك لهوان بهم على الله ، وإنما هى المعرفة والانخياش إلى الحق الانخياش الكلى ، وليس معنى ذلك أنه يجب على المسلمين ترك الدنيا ، فقد قال تعالى : (وَلَا تُنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)^(١٠) ، ولكن ليأخذها المسلم بالله من حق ويؤديها لله بحق .

١٠ - سورة القصص ، الآية ٧٧ .

علوم الإسلام مرجعها الكتاب والسنة

ولا خلاف بين أهل العلم أن الكتاب الكريم والسنة الصحيحة هما مصدر هذا الدين ، وإليهما يرجع الإجماع المعتمد ، وكذلك القياس الصحيح .

وعلى هذه القاعدة يقوم الفقه من عبادات ومعاملات ، وتهذيب النفوس وتزكيتها - وهو علم الأخلاق - وغير ذلك من العلوم .

وكما أن رواية الحديث تنتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فكذلك علم التزكية ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما المنطق فقد صرح المسلمون أنهم نقلوه عن اليونان بعد مضي زمن الصحابة والتابعين ، ونسبوه إلى اليونان ، كما نسبوا كتب الطب إلى أصحابها ، ونسبوا كتاب كليلة ودمنة إلى بيدبا الهندي ، وكن على يقين أن العرب لو أخذوا آداب السير إلى الله عز وجل عن الهنود أو الفرس لنسبوها إليهم .

ولا يمنع هذا أن قوماً من متأخري المنتسبين للصوفية دخل في كلامهم اصطلاحات لم تعرف عن سلف الصوفية ، غير أن من عرف التصوف الإسلامي يتحقق أنها لم تغير عقائد القوم وما كان عليه سلفهم الصالح ، ولم تنحرف بهم عن طريق الله عز وجل لا قليلاً ولا كثيراً .

والدخلاء الذين يدعون أنهم صوفية كذباً لا نعتبرهم صوفية ، بل هم أعداء الإسلام والمسلمين ، فلا قيمة لانتسابهم الزائف .

والميزان الذي نميز به الصوفية والمدعين الكاذبين هو :

الأصول الاعتقادية والفروع العملية

فمن كان في إيمانه على عقيدة السلف الصالح من القرون الثلاثة المجمع على صحتها والتي لا خلاف بين أهل السنة والجماعة فيها ، ولم يخرج في الفروع - من عبادات ومعاملات - عما أجمعوا عليه ، ولم يشذ عن أقوالهم رضوان الله عليهم ، وسار على آداب أهل الطريق من التمسك بأعلى الأمور ، وتجريد القصد في التقرب إلى الحق عز شأنه بما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنن الصحيحة - والصوفية هم أعلم الخلق بتلك السنن فهم حملتها علمياً وعملياً وهم المتخلقون بها على

الحقيقة - فمن كان كذلك فهو صوفى .

ومن كان على غير تلك العقيدة فذلك الذى تستطيع أن تقول عنه : بوذياً ، أو هندوسياً ، أو فارسياً ، يهودياً أو نصرانياً ، أو لا شئ ، فضعه فى الموضوع اللائق به بحسب اعتقاده وحكم الشريعة المطهرة عليه .

وكما أنه لا يضر الإسلام انتساب المنافقين للإسلام - مع دسائسهم التى نطق بها الكتاب الكريم - فلا يضر السادة الصوفية انتساب أعدائهم وأعداء الإسلام إليهم ، وهذا أمر واضح بين لمن كان له دين وإنصاف .

موقف المستشرقين من الإسلام

وفى كتاب " السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى " ذكر الدكتور مصطفى السباعى رئيس قسم الفقه الإسلامى بجامعة دمشق بعض دسائس المستشرقين وافتراءاتهم ، قال :

" أما المستشرقون فقد كتبت عنهم كلمة موجزة فى كتابى هذا ، قبل أن أزور أكثر جامعات أوروبا عام ١٩٥٦ م وأختلط بهم وأتحدث إليهم وأناقشهم ، فلما تم لى ذلك ازددت إيماناً بما كتبتهم عنهم واقتناعاً بخظرهم على تراثنا الإسلامى كله سواء كان تشريعياً أم حضارياً ، لما يملأ نفوسهم من عصبية تأكل قلوبهم حقداً ضد الإسلام والعرب والمسلمين .

كان أول من اجتمعت بهم هو البروفسور " أندرسون " رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الإسلامى - فى معهد الدراسات الشرقية فى جامعة لندن - وهو متخرج من كلية اللاهوت فى جامعة كمبردج ، وكان من أركان حرب الجيش البريطانى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية - كما حدثنى هو بذلك عن نفسه - تعلم اللغة العربية من دروس اللغة العربية التى كان يلقيها بعض علماء الأزهر فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة ساعة فى كل أسبوع لمدة سنة واحدة ، كما تعلم العامية المصرية من اختلاطه بالشعب المصرى حين توليه عمله العسكرى الأنف الذكر ، وتخصص فى دراسة الإسلام من المحاضرات العامة التى كان يلقيها المرحوم " أحمد أمين " ، والدكتور " طه حسين " ، والمرحوم الشيخ " أحمد إبراهيم " ، وبهذه الدراسات العميقة ! فى اللغة والإسلام استحق لقب " بروفسور " ، وانتقل من الخدمة العسكرية بعد الحرب إلى رئاسة قسم قوانين الأحوال

الشخصية فى جامعة " لندن " كما ذكرنا .

لا أريد أن أذكر أمثلة عن تعصبه ضد الإسلام - وقد حدثنى كثيراً عن ذلك المرحوم الدكتور "حمود غرابة " مدير المركز الثقافى الإسلامى فى لندن حينذاك ، ولكنى أكتفى بأن أذكر ما حدثنى به البروفسور " أندرسون " نفسه من أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراه فى التشريع الإسلامى من جامعة لندن لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة فى الإسلام وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة ، فعجبت من ذلك وسألت هذا المستشرق : وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراه لهذا السبب وأنتم تدعون حرية الفكر فى جامعاتكم ؟ قال : لأنه كان يقول : الإسلام يمنح المرأة كذا ، والإسلام قرر للمرأة كذا ، فهل هو ناطق رسمى باسم الإسلام ؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعى حتى يقول هذا الكلام ويتكلم باسم الإسلام ؟ إن آراءه لم ينص عليها فقهاء الإسلام الأقدمون ، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعى .

هذا هو كلام هذا المستشرق الذى لا يزال حياً يرزق ، ولا أدرى إن كان لا يزال فى عمله فى جامعة لندن أم أحيل إلى التقاعد " المعاش " .

وزرت جامعة " أدنبره " اسكتلندا فكان المستشرق الذى يرأس الدراسات الإسلامية فيها قسيساً بلباس مدنى ، وقد وضع لقبه الدينى مع اسمه على باب بيته ، وإنى لأشهد أنه كان دمث الأخلاق لطيف الحديث .

وفى جامعة " جلاسكو " - اسكتلنده أيضاً - كان رئيس الدراسات العربية فيها قسيساً عاش رئيساً للإرسالية التبشيرية فى القدس قرابة عشرين سنة حتى أصبح يتكلم العربية كأهلها ، وقد حدثنى بذلك عن نفسه فى هذه الزيارة ، وكنت قد اجتمعت به قبل ذلك فى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى " بجمدون " لبنان عام ١٩٥٤ م .

وفى جامعة " أكسفورد " وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية فيها يهودياً يتكلم العربية ببطء وصعوبة ، وكان أيضاً يعمل فى دائرة الاستخبارات البريطانية فى ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهناك تعلم العربية العامية ، وتلك هى مؤهلاته التى بوأته هذا القسم ، ومن عجيب

أنى رأيت فى منهاج دراساته التى يلقيها على طلاب الاستشراق تفسير آيات من القرآن الكريم من "الكشاف" للزمخشري - إى والله وهو لا يحسن فهم عبارة بسيطة فى جريدة عادية - ودراسة أحاديث من البخارى ومسلم ، وأبواب من الفقه فى أمهات كتب الحنفية والحنابلة ، وسألته عن مراجع هذه الدراسات فأخبرنى أنها من كتب المستشرقين أمثال " جولد تسيهر " ، و" مرجليوث " ، و" شاخت " ، وحسبك بهؤلاء عنواناً على الدراسات المدخولة المدسوسة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين .

أما فى جامعة " كمبردج " فكانت رئاسة قسم الدراسات العربية والإسلامية فيها للمستشرق المعروف " أريرى " واختصاصه فى اللغة العربية فحسب ، وقد قال لى خلال أحاديثى معه : بأننا - نحن المستشرقين - نقع فى أخطاء كثيرة فى بحوثنا عن الإسلام ، ومن الواجب أن لا نخوض فى هذا الميدان لأنكم - أنتم المسلمين العرب - أقدر منا على الخوض فى هذه الأبحاث .

وفى " مانشستر " إنجلترا اجتمعت بالبروفسور " رولسون " ، وكان يقابل سنن أبى داود على نسخة مخطوطة ، وله كتابات فى تاريخ الحديث يتفق فيها غالباً مع آراء المستشرقين المتحاملين ، وقد حرصت على أن أبين له أن الدراسات الاستشراقية السابقة فيها تحامل وبعد عن الحقيقة ، وتعرضت لآراء " جولد تسيهر " وأثبت له أخطائه التاريخية والعلمية ، فكان مما أجاب عنه : لاشك أن المستشرقين فى هذا العصر أكثر اطلاعاً على المصادر الإسلامية من " جولد تسيهر " نظراً لما طبع ونشر وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومة فى عصر " جولد تسيهر " ، فقلت له : أرجو أن تكون أبحاثكم - المستشرقين - فى هذا العصر أقرب إلى الحق والإنصاف من " جولد تسيهر " و" مرجليوث " وأمثالهما ، فقال : أرجو ذلك .

وفى جامعة " ليدن " بهولندا اجتمعت بالمستشرق اليهودى " شاخت " ، وهو الذى يحمل فى عصرنا هذا رسالة " جولد تسيهر " فى الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه ، وباحثه طويلاً فى أخطاء " جولد تسيهر " وتعمده تحريف النصوص التى ينقلها عن كتبنا ، فأنكر ذلك أول الأمر ، فضربت له مثلاً واحداً مما كتبه " جولد تسيهر " فى تاريخ السنة وهو ما نقلناه عنه فى هذا الكتاب ، وكيف حرف قول الزهرى " إن هؤلاء الأمراء " أكرهونا على كتابة " الأحاديث " إلى لفظ " على كتابة أحاديث " ، فاستغرب ذلك ، ثم راجع كتاب " جولد تسيهر " وكنا نجلس فى مكتبته الخاصة ، فقال :

معك الحق أن " جولد تسيهر " أخطأ هنا ، قلت له : هل هو مجرد خطأ ؟ فاحتد وقال : لماذا تسيئون به الظن ؟ فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان ، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفي ما زعمه " جولد تسيهر " - وقد ذكرت ذلك فى الكتاب - وبعد مناقشة فى هذا الموضوع قال : وهذا خطأ من " جولد تسيهر " ، ألا يخطئ العلماء ؟ قلت له : إن " جولد تسيهر " هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الإسلامى على وقائع التاريخ نفسه ، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهرى ؟ وكيف جاز له أن يحكم على الزهرى بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير مع أن الزهرى لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير ؟ وهنا اصفر وجه " شاخت " وأخذ يفرك يداً بيداً عليه الغيظ والاضطراب ، فأنهت الحديث معه بأن قلت له : لقد كانت مثل هذه " الأخطاء " كما تسميها أنت تشتهر فى القرن الماضى ، ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر على أنها حقائق علمية ، قبل أن نقرأ - نحن المسلمين - تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها ، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على " أخطائكم " لتصحيحوها فى حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية .

ومن الملاحظ أن هذا المستشرق كان يدرس فى جامعة القاهرة - فؤاد الأول سابقاً - وله مؤلف فى تاريخ التشريع الإسلامى ، كله دس وتحريف على أسلوب شيخه " جولد تسيهر " .
وفى جامعة " أوسلا " السويد ، التقيت بالشيخ المستشرق " نيرج " ، وهو الذى كان قد أشرف على كتاب " الانتصار " لابن الخياط - على ما أظن - وطبعته قديماً لجنة التأليف والترجمة فى القاهرة ، وجرى بينى وبينه حديث طويل كان أكثره حول أبحاث المستشرقين ومؤلفاتهم عن الإسلام وتاريخه ، وجعلت " جولد تسيهر " محور الحديث عن المستشرقين ، وذكرت له أمثلة من أخطائه وتحريفه للحقائق ، فكان مما قاله بعد ذلك : إن " جولد تسيهر " كان فى القرن الماضى ذا شهرة علمية ومرجعاً للمستشرقين ، أما فى هذا العصر بعد انتشار الكتب المطبوعة فى بلادكم عن العلوم الإسلامية فلم يعد " جولد تسيهر " مرجعاً كما كان فى القرن الماضى ، لقد مضى عهد " جولد تسيهر " فى رأينا .

وقد أتيت لى خلال تلك الرحلة أن أواصل زيارة الجامعات عدا ما ذكرته منها ، فى عواصم كل من بلجيكا والداغرك والنرويج وفنلندا وألمانيا وسويسرا وباريس ، واجتمعت بمن كان موجوداً حينئذ من

المستشرقين فيها ، ومما ذكرته آنفاً وما دونته في مذكراتي عن المستشرقين الذين لقيتهم خلال تلك الرحلة ، اتضحت لي الحقائق التالية :

أولاً : إن المستشرقين - في جمهورهم - لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً وقد يشذ عن ذلك أفراد .

ثانياً : إن الاستشراق في الدول الغربية غير الاستعمارية - كالدول السكندنافية - أضعف منه عند الدول الاستعمارية .

ثالثاً : إن المستشرقين المعاصرين في الدول غير الاستعمارية يتخلون عن " جولد تسيهر " وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة .

رابعاً : إن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة ، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب يلقي منهما كل تأييد .

خامساً : إن الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه لسمعة المسلمين ، ففي فرنسا لا يزال " بلاشير " و" ماسينيون " وهما شيخا المستشرقين الفرنسيين في وقتنا الحاضر يعملان في وزارة الخارجية الفرنسية كخبيرين في شؤون العرب والمسلمين .

وفي المجلد رأينا - كما ذكرت - أن الاستشراق له مكان محترم في جامعات لندن وأكسفورد وكمبردج وأدنبره وجلاسكو وغيرها ، ويشرف عليه يهود وإنجليز استعماريون ومبشرون ، وهم يحرصون على أن تظل مؤلفات " جولد تسيهر " و" مرجليوث " ثم " شاخت " من بعدهما هي المراجع الأصلية لطلاب الاستشراق من الغربيين ، وللراغبين في حمل شهادة الدكتوراه عندهم من العرب والمسلمين ، وهم لا يوافقون أبداً على رسالة لطلب الدكتوراه يكون موضوعها إنصاف الإسلام وكشف دسائس أولئك المستشرقين .

انتهى من كتاب " السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي " ص ٢١ - ٢٧ .

مصدر التصوف الكتاب والسنة

ومن المستشرقين من صرح بخطأ من زعم أن مصدر التصوف الإسلامى غير الإسلام ، وإليك كلام " ماسينيون " أحد المستشرقين ، قال :

" أما دراسة مصادر التصوف فإن الأمد بيننا وبين استكمالها ما يزال بعيداً ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة ، بين مذهب الوحدة - وهو المذهب الرئيسى فى التصوف الإسلامى فى أرقى أدواره - وبين مذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام ، مستمد إما من رهبانية الشام - وهذا رأى " مركس " - ، وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود - وهذا رأى " جونس " - ، وقد بين " نيكولسون " أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها ، إبان عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث وبما حل بالأفراد من نوازل " (١١) انتهى .

وإذا سألت المستشرقين الأوروبيين ، ومن سلك مسلكهم - ممن يذيعون ذلك الزعم الفاسد : أن صوفية المسلمين أخذوا أصولهم عن الهنود والأمم الماضية - من أين أخذ رهبانهم التصوف المسيحى ؟ أجابوك أنهم أخذوه عن روح القدس ، ولا ندرى أى مانع يمنع العرب من أن يأخذوا عن رب روح القدس بنسبتهم ، وكتابهم الكريم جامع لكل خير ، وقد قال تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ) (١٢) ، والفيض الإلهى والإلهام والهداية التى يسألها كل مسلم فى صلواته - (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (١٣) ، (مَنْ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (١٤) - ممنوح لمن شاء الله عز وجل كما شاء ، والله ذو الفضل العظيم .

أما الملحدون فسينشئون لك قصة مخترعة ليس لها سناد لا حسى ولا عقلى ، وقد كيّفوا بمحض

١١ - انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة " تصوف " .

١٢ - سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

١٣ - سورة الفاتحة ، الآيات ٦ ، ٧ .

١٤ - سورة النساء ، الآية ٦٩ .

التخمين كل نواحي العلوم والفنون على أساس الفرض الباطل الذى تخيلوه - محض افتراض بلا دليل - فى مبدأ هذا الوجود بزعمهم الفاسد أن مرجعه إلى الجهل السحيق ، وكلما طولبوا بالدليل على هذه الدعوى الباطلة هربوا من الاستدلال الصحيح ، وأيدوا دعواهم بدعوى أخرى ، إذا بحثتها وجدتها محض تكرار للدعوى الأولى التى لن يقوم عليها دليل ، وهذه خلاصة علمهم : دعوى باطلة تؤيدها دعوى باطلة .

وإذا كان فاقداً للشئ لا يعطيه ، ولا يستطيع أن يعطى الشئ إلا مالكة ، فالفقير لا يعطى مالاً لا يملكه ، والجاهل لا يعطى علماً فيما جهل ، ولا خلاف بين العقلاء فى ذلك ، فقد قام الدليل القطعى على أن مصدر هذا الوجود فى تدبيره وإحكامه ومقاصده ومراميه وعلومه إنما هو العلم . فكل دعوى أسست على زعم أن مبدأ الوجود هو الجهل فهى باطلة ، لأنها أسست على زعم باطل ، وكل ما أسس على الباطل فهو باطل .

صورة التعليم الإلهى

إن الغرائز يستوى فيها الإنسان المتعلم وغير المتعلم ، والرغبة والرغبة توجد عند كل منهما ، كما يوجد الحدس المصيب ، فقد يتوقع الإنسان أمراً ليس له فى حسابه مقدمات فيقع كما توقع ، ومن الناس من تصدق كل مرأيه .

وما ذكره " فرويد " فى تفسير الأحلام ينطبق على بعض المرأى لا على جميعها ، فكثيراً ما وقعت لقوم رؤى تتعلق بالمستقبل البعيد - مفصلة تفصيلاً دقيقاً - لا تنطبق على ما ذهب إليه فرويد ولا من كيف الوجود التكييف الجاهل ، ولا يمكن ردها إلا إلى تعليم تفصيلى لا يستند إلى الحواس الخمس ، ولا يتردد من يريد الوصول إلى الحقيقة مجرداً عن التعصب الأعمى والأغراض أن يذعن للحق وي طرح ما سواه .

وقد أقام الله عز وجل الحجة على عباده ، حيث أعطاهم مثلاً مصغراً من النبوة فى أنفسهم ، بالرؤيا الصحيحة التى هى من أقسام الإلهام ، وهى غير الأحلام الشيطانية وحديث النفس .

ومهما حاول الخراصون تحويرها عن الحقيقة ، فلن يجدوا السبيل إلى ذلك ، فإن ما أدركه الإنسان

من غير أن يكون له مقدمات حسية هو البرهان الذى لن يزال يقرع القلوب المغلقة ، والله يفتح لمن يشاء ، ومن يهد الله فهو المهتد .

وعلم النائم نوماً مغناطيسياً بأشياء لم تسبق له بها أى صلة حسية ، هو مثلُ مصغرٍ للتعليم الإلهى لمن يصطفاهم الحق سبحانه وتعالى لوجه من الوجوه العلمية .

فالخلاف ينحصر بيننا وبين الملحددين فى ثبوت التعليم الإلهى بغير الحواس الظاهرة ، وقد ثبت ذلك عقلاً وحساً وشرعاً ، وعلم الله الأنبياء وأرسلهم إلى الخلق معلمين هداة .

والخلاف بيننا وبين تلاميذ أولئك الملحددين فينا ، هل التعليم الإلهى جائز للأولياء فى غير ما يختص به الأنبياء أو لا ؟ وقد ثبت ذلك بالكتاب والسنة .

وطريق الحقيقة العظمى بين العبد وربّه أقرب بكثير منها إلى الفرس والهنود وغيرهم ، قال تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)^(١٥) ، (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(١٦) ، القرب المنزه .

وحيث قد ثبت التعليم الإلهى للأنبياء وورثة الأنبياء ، فالسبب التاريخى ليس له دخل فى ذلك التعليم ، فإن الفيض الإلهى لا يحكم عليه زمان ولا مكان ، وما هو إلا محض الفضل الرحمانى ، فكما علم سبحانه أمة أو فرداً من الأمم بالتعليم الربانى ، فهو سبحانه يعلم من يشاء من غيرهم ، قال تعالى : (وَعَلَّمَآهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)^(١٧) ، (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(١٨) ، لا زمان ولا مكان .

وقد غيرت الأمم الماضية فيما جاء به أنبياؤهم فى العقائد ، والأحكام ، والتهذيب - وهو علم الأخلاق وهو خلاصة الأديان كلها - فجاء المصطفى صلى الله عليه وسلم بالحق بأوضح صورة فى كل وجه من تلك الوجوه فى أسمى درجة من الكمال ، قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)^(١٩) .

ومن الأمور الأولية عند من يعرف الصوفية رضوان الله عليهم أنهم لا ينتظرون من الخلق ثناء أو

١٥ - سورة الحديد ، الآية ٤ .

١٦ - سورة ق ، الآية ١٦ .

١٧ - سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

١٨ - سورة آل عمران ، الآية ٧٤ .

١٩ - سورة المائدة ، الآية ٣ .

تقديراً ، لما هم عليه من كمال علمي - وقد انحلت أمامهم مغاليق الوجود وبدت لهم مساتيره - وكمال عملي ، وحالهم الخير الجسد في الصورة الإنسانية ، فهم لا يشعرون بمن لم ينصفهم من أهل هذا العصر أو غيرهم ، وغاية ما يدل عليه ذلك أن أهله لا يعرفون ما عليه الصوفية ، ومن أنصفهم إنما ينصف نفسه بالاعتراف بالحق لمن أنعم الله عليه ، أما هم فمشغولون بربهم عز شأنه .

أصول الإسلام لا تمكن أهله من التغيير فيه

لم يترك رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم أمر الدين للأشخاص مهما عظمت منزلتهم فيه ، لا في العقائد ولا في الأحكام ، وقد حددت مواطن الاجتهاد تحديداً صريحاً ، فحيث يوجد نص صريح في كتاب الله أو السنة الصحيحة ، أو حيث صح إجماع أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال للاجتهاد .

وليس الأمر في الإسلام كما هو عند المسيحيين أن ما عقده زعماءهم في الأرض فهو معقود في السماء وما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء ، ولذلك لم يتقيدوا بشريعة التوراة مع أن المسيح عليه السلام جاء عنه في الإنجيل : " ما جئت لأنقض الناموس ، وإنما جئت لأكمل الناموس " ، وقد كان عليه السلام وتلاميذه في حياته متقيدين بشريعة التوراة إلا ما أوحى إليه فيه ، ولذلك لما انتقده اليهود لأنه أبرأ مريضاً يوم السبت برر عمله وأظهر أنه لم يخرج على شريعة التوراة ، فقال : " أى إنسان منكم يكون له خروف واحد ، فإن سقط هذا في السبت في حفرة ، أفما يمسه ويقيمه ! فالإنسان كم هو أفضل من الخروف ، إذأ يجلب فعل الخير في السبت " (٢٠) .

ولم يذكر عنه في أى إنجيل أنه تناول طعاماً حرمة التوراة ، كما لم ينقل عنه في أى إنجيل أنه أمر أتباعه الذين عاصروهم - وأكثرهم يهود - أن لا يلتفتوا إلى تحريم التوراة ، والمسيحيون الآن على عدم التقيد بتحريمها ، وإنما جاء ذلك من تصرف الرؤساء المسيحيين ولم يرجعوا فيه إلى أمر من سيدنا عيسى عليه السلام ، ومن ذلك : ترك الختان لليهود الذين يدخلون المسيحية ، وأكلهم الأطعمة التي لم يحها لا سيدنا موسى ولا سيدنا عيسى عليهما السلام .

وطبيعة التشريع الإسلامى تأبى على أهله ذلك ، فأمر التشريع قد انتهى بلحوقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، حتى الذين قالوا من الشيعة بعصمة بعض الأشخاص ، قرروا أن اختصاصهم لا يتناول تحليل حرام جاء النبي صلى الله عليه وسلم بتحريمه ، وإنما كان اختصاصهم فى المسائل الاجتهادية التى لا نص فيها ولا إجماع بشروطه عندهم .

وعقيدة الإسلام لا غموض فيها ، ولا تصطدم بأى قضية من قضايا العقل ، فهى مطابقة لفطرة الإنسان فى أى طور من أطواره ، بدائية كانت أو متوسطة أو فى أرقى درجة من درجاته العلمية .
ولذلك كان من يعتنق دين التوحيد - دين تنزيه الحق سبحانه - تطهره بوتقته النورانية مما كان عليه من ضلال ، فيصل إلى اليقين الجازم بأن الحكيم الذى خلق الكائنات ودبرها هو وحده الذى يُعبد لا سواه لأنه المنعم الحقيقى ، وكل ما سواه عبدٌ قد أنعم ربه عليه بما تفضل من نعم ، ولا يكون أبغض إليه مما كان فيه من عبادة نار أو حجر أو شجر أو حيوان أو إنسان ، ويتجلى له أن كل ذلك لا يستحق أى عبادة ، ويحتقر ما كان فيه من سفه أداه إليه التقليد واطراح استعمال العقل الذى هو مصباح الله للهداية فى كل عاقل .

والقاعدة أن الإنسان لا يأخذ إلا عن من يراه المثل الأعلى ، وما سوى الإسلام أديان شرك لا يرى فيها المسلم إلا أدنى المثل ، فكيف يأخذ عنها ؟

وعلى هذا فليسلم البوذى والنصرانى والفارسى واليهودى - بما فى اليهودية من تشبيه يرده العقل - فإما أن يبقى على اعتقاده فهو كافر منافق ونسبته الظاهرة إلى الإسلام لا تصيره فى حقيقة الواقع من المسلمين ، وإما أن يصطبغ بصبغة الله - التنزيه الكامل للحق سبحانه - فهو عدو حقيقى لسائر الاعتقادات الباطلة ومنها عقيدته الماضية ، بل هو أشد مقتاً لها لأنه أكثر الناس شعوراً ببطلانها ، هذا من الناحية الاعتقادية .

أما فى الفروع فالفقه الإسلامى الحلال فيه ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والواجب فيه ما أوجبه الله ورسوله ، والحجة فى الإسلام هو نفس الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، وما لا يرجع إليهما فهو مردود .

والقاعدة التي سار عليها علماء المسلمين في كل عصر : " العلماء مأمونون على ما نقلوا مبحوث معهم فيما قالوا " ، وقال مالك بن أنس : " ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر الشريف " .

وقد حفظ الله عز وجل كتابه من التغيير والتبديل بحال لم تحصل لأى كتاب فى العالم ، ولو أن أعظم عظيم فى علم أو ملك أو جاه أمّ الناس فى صلاة فغير حرفاً من آية من كتاب الله ، فإن لأى فرد من ملأ المسلمين الذين ائتموا به أن يرده إلى الصواب ، مع أنهم اتخذوه إماماً فى وقوفهم بين يدي ربهم عز وجل .

وما رأينا إماماً فى أى مذهب من المذاهب احتج فى حلال أو حرام ببوذا أو زرادشت أو أفلاطون أو بولس أو بطرس أو توراة أو إنجيل فى كل عصور الإسلام إلى الآن حتى بعد الترجمة والاختلاط ، وصح عنه صلى الله عنه وسلم : ((لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَدِّبُوهُمْ)) ، وقال تبارك وتعالى : (أَفَتُنْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)^(٢١) إلى أن قال : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمناً قليلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)^(٢٢) .

وفرق كبير بين ما يذكر على سبيل الاستثناس والموعظة الحسنة مما هو من مكارم الأخلاق ، وبين ما يتخذ قاعدة فى تحليل وتحريم ، والحديث المروى عن المعصوم صلى الله عليه وسلم إذا كان سنده ضعيفاً لا يحتج به فى الحلال والحرام ، فكيف بما هو عن أهل الكتاب ؟ .

التشابه فى الشرائع

أما التشابه الموجود فى الشرائع - ومنه الأخلاق ، التهذيب الروحى - طريق تزكية النفس ، فذلك لأن مصدر الشرائع واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، وهو أرسل الرسل سفراء بينه وبين خلقه ، ولا شك أن علم الأخلاق هو أهم العلوم فى الشرائع كلها .

وإذا اعتبرت فى الهند أو فارس أو الصين أنبياء وأن أصل شريعتهم التوحيد فأدخل عليها ما أدخل

٢١ - سورة البقرة ، الآية ٧٥ .

٢٢ - سورة البقرة ، الآية ٧٩ .

كما كان سيدنا عيسى عليه السلام على التوحيد ثم أدخل على دينه ما أدخل مما ليس فى دينه ، قال تعالى : (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)^(٢٣) ، فهذا التشابه لا يلزم منه أنه أخذ بعضهم عن بعض ، وكثيراً ما تتشابه الظروف والدواعى من غير أن يستمد أحد من الآخر ، كرجلين فى جزيرتين متباعدتين لم يختلط أحدهما بالآخر تشابهت ظروفهما فاتحدا فى فكرة واحدة لم يأخذها أحدهما من الآخر .

وكما إذا نومت إنساناً تنويماً مغناطيسياً وسألته عن مسألة فأجابك عنها ، بينما نوم آخر فى موضع آخر وسئل عن نفس المسألة فأجاب بنفس الجواب ، ولم يأخذ أحدهما عن الآخر .
وحيث إن مصدر الشرائع هو الحق تبارك وتعالى ، ومقصود الشرائع واحد ، فلا يضر التشابه الموجود فيها ، وكما أوحى الله لأمة من الأمم يوحى لغيرها ، ومتى سلمنا بمبدأ التعليم الإلهى - وهو ثابت - فقد انحل كل شئ .

وإذا كانت أخلاق الصوفية ومبادئهم موجودة فى القرآن الكريم وفى السنة المشرفة فمن العبث القول أنها أخذت من دين آخر ، والله تبارك وتعالى يقول : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)^(٢٤) ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)) .

فمن دخل الإسلام من غير أهل الإسلام فقد سار فى ركب المسلمين ، لأنه لا مجال فى الإسلام للتغيير والتبديل ، ولم يسمح لشخص فيه - ولا الصحابة - أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً ، ومهما وصل إلى أعلى مرتبة فى الولاية فهو مقيد ، هو ومن أخذ عنه بأصول الإسلام .

٢٣ - سورة غافر ، الآية ٧٨ .

٢٤ - سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

الإسلام أساس الصلة بين الشيخ وتلميذه

ومن اتبع شيخاً ما على أساس أنه إن أمره بالكفر بالله وترك الإسلام أو باستباحة المعاصي اتبعه في ذلك فهو كافر خارج عن الإسلام هو وشيخه إذا كان يقره على ذلك ، أما إن دخل معه على أساس الإسلام بحيث يتبعه لأنه متبع لا مبتدع وأنه لا يأمره إلا بما يأمره به الله ورسوله وعلى أنه لو أمره بشيء من المخالفة يقيناً فإنه لا يفعلها وإن كان يحسن الظن فيه فيحمل أمره به على زوال عقله . وما جاء في آداب التلميذ مع شيخه أن يتبعه فيما يأمره به وي طرح رأيه لرأى شيخه ، إنما يصح ذلك في الأمور التي يجوز أن يكون لها وجه يطابق الشريعة .

أما المسائل الخلافية التي جرى علماء الشريعة على إجازة الخلاف فيها بشروطه المعروفة ، فإنه يسع الصوفية فيها ما وسع الأمة .

وافرض جدلاً أن إنساناً أحسن الظن في دعوى في الطريق خفى عليه أمره ، فإن أساس الطريق أنه متى تبين له الدليل أن ذلك المتبوع في دائرة التكليف وأنه يستبيح المعصية فلا يتردد بالحكم عليه بالكفر والردة ويبرأ إلى الله منه ، وإذا فالقاعدة التي يبنى عليها الاتباع بين أهل الطرق قاطبة هي الدين الحق لا سواه ، فمزال الكل في دائرة الإسلام .

وحيث قد وضع هذا ، فإننا نرد كل دعوى أن الصوفية دخل عليهم أى شيء من أى دين غير دين الإسلام ، والقائل بذلك رجل مغرض أو متساهل في تقليد المغرضين لا يعرف ما عليه السادة الصوفية في عقائدهم ، ولا في اتباعهم لأحكام الشريعة ، وبعدهم عن البدع البعد الذي لا يساويه بعد ، وعلمهم بروح الشريعة ، وتمكنهم في صميم ما جاءت لأجله الرسل .

ومقاصد الرسالة الإلهية هي : التسامى بالإنسان إلى أعلى منزلة من خصال الخير كلها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)) .

وخذ كل مكرمة في القرآن ، من علم ورحمة وإيثار وتواضع وزهد وكرم وشجاعة وعفة وعدل وإحسان وفقه وحكمة وأدب ومكافأة وسماحة وصدق وإخلاص وحرمة وحياء ووفاء ، وسائر المكارم ، وفتش في العصور كلها هل تجد من همه التحقق بالإيمان الكامل في سائر مراتبه والتحلى

بتلك المكارم لا لحظ عاجل ولا رياء ولا سمعة مع أدب العبودية ودوام الاشتغال بالله غير أولئك القوم المعروفين بالصوفية ، بينما الناس مشغولون بما هم مشغولون فيه ، فمقصودهم القرب الحق للذات العلية الكاملة ، القرب الأدنى ، وهل يتصور أن يكون القرب من الكمال المطلق قرب مسافة حسية ؟ ذلك مستحيل ، وإنما هو التحقق بالكمال ، وإخلاص العبادة لله وحده لأنه الله .

عقائد أهل الحق هي عقائد السلف الصالح

الحمد لله وحده ، لأن كماله سبحانه هو الكمال الذاتى المنزه عن الحدود ، المطلق عن القيود ، وكل ما اتصف به سواه من علم وحياة وسمع وبصر وكلام وغير ذلك من صفات ، حتى الوجود ، منحة منحها المعطى سبحانه وهو مالکها والمتصرف فيها ، وكل كمال فى الوجود فهو كماله ، ملك له سبحانه .

وإذا كان الخط الجميل والصنعة المتقنة ناطقة - بلسان حالها - بمهارة الكاتب والصانع وبراعته ، فكل ما فى الوجود ألسنة حمد تنطق بحكمة البديع عز شأنه وعلمه وقدرته ، فلا يستحق الحمد على الحقيقة سواه ، لأن غيره ليس له الكمال الذاتى وليس مصدرأ للكمال ولا منعماً ولا مدبرأ .

وكل من تشرف بنعمته توجه عليه توجهاً ذاتياً شكر المنعم عز شأنه ، والشكر يتضمن الاعتراف للمنع بالكمال والإنعام والمنة ، وذلك يقتضى استعمال نعمه فى مرضيه ، فإن استعمالها فى مسأخطة كفران بحق المنعم والنعمة ، ويتضمن الشكر التعظيم والمحبة وهما مراتب أعلاها العبادة ، ولا يستحقها إلا المنعم الأعلى سبحانه لا لشيء إلا لأنه المنعم الحق ، قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِلَّهِ)^(٢٥) ، فلم ينف عن المؤمن أن يحب أحباب الله فيه بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِلَّهِ)^(٢٦) ، وإنما المنوع أن يتغالى فى حبهم إلى أعلى المراتب ، فیسوى بين الله وبين خلقه فى أعلى مرتبة التى هى حق الله وحده ، لأنه لا يستحق الحب الأعلى والرغبة العليا والرغبة العليا سواه .

وحب العبد لربه - خالقه ومنشئه - هو حب له لذاته سبحانه ، وحبه لأحباب الله إنما هو حب الله لهم - لا لذواتهم - ولو لم يحبهم الحق لما أحببناهم .

وهنا امتازت العبادة عما دونها من المحبة والتعظيم ، فإن الفرق شاسع بين التعظيم الذاتى وغير الذاتى ، والحب الذاتى وغير الذاتى .

٢٥ - سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

٢٦ - سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

ومن تقرب إلى الله بعبادة غيره ، فى قوله تعالى : (مَا نُعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (٢٧) ، لم يقولوا ما نحبهم لله أو ما نعظمهم لله ، ولو تقربوا إلى الله بحبتهم أو تعظيمهم - وكانوا أهلاً لذلك - لكان ذلك قربى حقيقية ، ولكن تقربوا إلى الله بحبتهم المحبة العليا وتعظيمهم التعظيم الأعلى - وذلك خاص بالمنعم الأعلى ، وتلك هى العبادة لا مطلق تعظيم ولا مطلق محبة - وهذا فى نفسه شرك لأنه مساواة لله بخلقه فيما هو حق الله وحده ، وإن جردوهم عن التأثير والخلق والتدبير ، لأن مساواة الحق بغيره فى التعظيم وحبه كحبه كفر صريح ، فقد تقربوا إلى الله بكفر لا بجائز .

وقد ضل قوم نسبوا نعمة الحق لبعض خلقه فاتخذوهم أرباباً ، وكذلك من اعتقد فيهم التأثير الذاتى أو العلم الذاتى أو حق التشريع من تحليل وتحريم ، قال تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (٢٨) ، وما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه كما جاء عن المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ومن وصف الخالق بصفة المخلوق فهو مشرك ، وذلك كمن يعتقد فيه تبارك وتعالى أنه جسد ذو طول وعرض وارتفاع ، أو ينسب إليه الاتحاد بالخلق أو الحلول .

ويتخيل الذين لا يفقهون أن كل موجود جسم ، إما من جماد أو هواء أو نور إلى غير ذلك ، وتلك أوهام باطلة يردّها الدليل ، والذى تقره العقول والدليل وجاءت الرسل بتحقيقه أن الحق عز وجل منزّه عن مشابهة الحوادث .

ولا فرق بين من يتخيل جسماً يعبدّه وبين من يعبد صنماً من حجر أو خشب أو معدن ، ولا خلاف بين أهل الحق فى أن المجسم جاهل بربه كافر به ، وما نسب للحق عز شأنه من مجئ ونزول واستواء فبدهى أنه ليس نزول الأجساد ولا مجيئها ولا استواءها ، وإنما هى أمور تليق بالمنزّه عن الشبه والأمثال ، قال تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) (٢٩) ، وقال تبارك وتعالى : (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) (٣٠) ، فواضح أن الاستواء

٢٧ - سورة الزمر ، الآية ٣ .

٢٨ - سورة التوبة ، الآية ٣١ .

٢٩ - سورة فصلت ، الآية ١١ .

٣٠ - سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .

كان بعد خلق السماوات والأرض ، وانظر معنى " ثم " فهو فعل إلهي منزه عن أن يشبه ما هو من الخلق ، وصفات الحق الذاتية أزلية ، فالعلم أزلي ، والقدرة والإرادة أزليتان ، وكل ذلك ثابت قبل الخلق منزهاً عن أن يحد بزمان أو مكان .

وكما أن الفعل إذا نسب للحق تجرد عن الزمان لأنه سبحانه منزه عن الزمان ، فقله تعالى : (يُرِيدُ اللَّهُ يَكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ يَكُمُ الْعُسْرَ)^(٣١) ، لا يتقيد بالحال ولا بالاستقبال ، كما هو الشأن في المضارع إذا نسب لزمان ، فهي إرادة مطلقة أزلية أبدية ، وكذلك (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)^(٣٢) لا يتقيد بزمان ، كان ولم يزل .

وقد قال تعالى في طالوت : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)^(٣٣) ، فالبسطة كلمة واحدة ، وإذا أضيفت للجسم كانت جسمانية تقاس بالطول والعرض والسمك ، وإذا أضيفت للعلم الذي هو معنى غير جسماني كانت بما يناسبه فلا تقاس بالمعيار الجسماني .

وإذا كان هذا في الحوادث ، فما نسب للحق وجب أن يكون منزهاً عن كل شبه بالحوادث لأن ذلك شأن الذات العلية المقدسة .

وكذلك الظرف إذا نسب للبارئ عز شأنه تجرد عن الظرفية ، لأن ذاته عز وجل منزهة عن الظرفية ولا تليق بها ، وكان معناه بما يناسب الحق المنزه عن المثل والشبيه .

فقله تعالى : (أَمِثُّم مِّنْ فِي السَّمَاءِ)^(٣٤) ، بمجرد نسبة " في " للحق زالت منها الظرفية ، وكذلك " على " و " مع " ... إلخ .

ونزول الجسم ومجيئه إنما يكون بالانتقال اللائق بالأجسام ، ونزول من ليس بجسم يستحيل أن يكون النزول المعروف من الأجسام ، وإنما هو نزول إلهي منزه عن الانتقال والمثل ، كما أن الذات تعالت وتقدست عن المثل .

وفي الرسالة القشيرية: " قربه كرامته ، وبعده إهانته ، علوه من غير توقل^(٣٥) ومجيئه من غير تنقل " .

٣١ - سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

٣٢ - سورة الأحزاب ، الآية ٢٧ .

٣٣ - سورة البقرة ، الآية ٢٤٧ .

٣٤ - سورة الملك ، الآية ١٦ .

٣٥ - من غير توقل : لا يقله ، لا يحمله حامل .

وكما أن أهل السنة لا خلاف بينهم في أن اليد في قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)^(٣٦) ، هي غير الجارحة المعلومة ، وكذلك الساق والأصبع ونحو ذلك ، فهي غير اليد التي نعرفها والساق التي نعرفها والأصبع التي نعرفها ، فيجب أن نقول : نزوله ومجيئه واستواؤه ، غير النزول المعروف في الأجساد ومجيئها واستوائها .

ومن أثبت للحق ، النزول والمجيئ والاستواء الجسماني فقد ضل ، وقد آمن أهل الحق بالنزول والمجيئ الإلهي المنزه عن صفات الأجسام وسمات الحدوث ، وكفروا بالنزول والمجيئ الجسماني بالانتقال من مكان إلى مكان ، وآمنوا بالاستواء الإلهي على العرش ، وكفروا بالاستواء المعروف من الأجسام ، لأن الاستواء المعروف من الأجسام مكيف ، أما الاستواء الإلهي فإنه غير مكيف .

وهذه هي الطريقة السلفية الصحيحة التي كان عليها خير الأمة من الصحابة والتابعين ، أما من استتر بالانتساب إلى السلف وهو يثبت الجسمية للحق - تنزهه عن افتراء المفترين - أو يتشكك فيها ، فيقول : لا نقول جسماً أو ليس بجسم ، فهو مشبه للحق تبارك وتعالى بتجويز الجسمية عليه ، وهذا نفاق ظاهر .

فالخلاف الحقيقي بيننا وبين المشبهين هو في إثبات الجسمية ونفيها ، فإن الموجود إما أن تجوز عليه الجسمية أو لا تجوز ، ومستحيل أن يتجرد عن الأمرين أو يثبت له الأمران فتجوز عليه الجسمية ولا تجوز ، ولا بد من واحد منهما ، فلا يسع أولئك القوم إلا أمر من ثلاثة أمور : إما أن يثبتوا له سبحانه الجسمية ، أو ينفوها عنه ، أو يقفوا موقف الشك فيعدوا فيمن يجوز الجسمية عليه ، ولا فرق بين من جوزها عليه سبحانه وبين من أثبتها له ، فالكل من الضالين الذين أشركوا بربهم تبارك وتعالى حيث وصفوه بصفة الحادث المحدود .

والذي عليه أهل الحق أنهم جزموا وآمنوا أنه لا يجوز - بوجه من الوجوه - أن يكون الأحد سبحانه فرداً من أفراد كلى ، فيشملة حد الجسم أو غيره من المخلوقات ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ومن آمن بأن الحق منزه عن الجسمية أسقط من خياله لوازم الجسمية ، ومن لم يفعل فمازال في إيمانه بقية من الضلال .

٣٦ - سورة الفتح ، الآية ١٠ .

كان الله ولم يكن شئ غيره

وكل ما سوى الحق مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، قال تعالى : (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)^(٣٧) ، ومهما تصور العقل امتداد سلسلة الحوادث في الماضي ، فحيث كل منها مسبوق بالعدم ، فالسلسلة كلها مسبوقة بالعدم ، ولا بد من تقدم موجدتها عليها جميعاً في مجموعها ، وعلى كل فرد منها تقدماً ذاتياً منزهاً عن الزمان .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - رضى الله عنهما - ((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ)) ، ((كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ)) ، ((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ)) ، وهذه روايات الصحيحين والسنن .

وحيث إن الروايات إذا رويت بالمعنى اتحدت فيه ، فلا بد أن ترمى إلى معنى واحد وتدور عليه ، وإن اختلفت ألفاظها ، ورواية ((وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ)) تحتمل وجهين أحدهما مطابق للروايات الأخرى - فإنه إذا لم يكن شئ غيره ولا شئ معه لا يكون قبله - فلا يصح علمياً الأخذ بالوجه الآخر لمخالفته للروايات الصحيحة .

ومن استدل برواية ((أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)) فقد أبعد ، فإن هذه الرواية تحتمل الوجهين أيضاً ، ولا يصح تأييد المحتمل بالمحتمل ، على أنها لا تتنافى مع الروايات الصحيحة كما تقدم ، فيجب حملها على الوجه المطابق لها ، وإنما يحكم بالصريح على المحتمل ، ورواية الإمام أحمد في مسنده ((كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ)) .

ومن أخذ بأحد الوجهين من محتمل وترك ما لا يحتمل من الروايات فقد خالف الأصول العلمية وأقام الدليل على أنه متبع للهوى ، وسلك مسلك أصحاب الزيغ الذين يأخذون بوجه مرجوح من نص محتمل ويتركون النص الذين لا إبهام فيه ولا احتمال والذى يعين المراد وينفى الاحتمال المرجوح .

وهذا إذا لم يكن هناك مصدر للحديث غير الصحابي الذى نقلت عنه هذه الروايات ، فكيف

٣٧ - سورة الزمر ، الآية ٦٢ .

وللحديث مصدر آخر صريح لا يحتمل إلا وجهاً واحداً .

ففى رواية بريدة رضى الله عنه ((كَانُ اللّٰهُ وَلَا شَيْءٌ غَيْرُهُ)) أخرجه ابن حبان والحاكم وابن أبى شيبة ، وهذا يعين المراد ويرفع ما توهمه المخطئون والمبتدعون ، ولا تردد فى ذلك عند من بحث الحديث مُقدِّماً ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم على الهوى ، ولم يلعب بالحديث ويتبع المتشابه ويترك المحكم الصريح ، نعوذ بالله من الهوى ، ونسأل الله العفو والعافية .

والواضح فى هذه الروايات جميعها - وهو الأمر المقطوع به - أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قد فهموا من حديثه صلى الله عليه وسلم أموراً : أن الله سبحانه خالق كل شىء ، وأنه تبارك وتعالى كان قبل كل شىء ، ولم يكن شىء غيره ، وكان ولا شىء معه ، ولم يرد عن أى صحابى ما ينافى ذلك صريحاً بأى وجه من الوجوه ، وفهمهم رضى الله عنهم حجة على غيرهم ، وقد سمعوا قوله الشريف صلى الله عليه وسلم كفاحاً ، ووعوه وعقلوه وهم الأمناء .

وعلى هذا كان السلف الصالح من خير القرون .

وعن أبى رزین العقیلى قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّٰهِ أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ قَالَ : ((كَانُ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ)) رواه الترمذى بسند حسن ، وقال : قَالَ أَحْمَدُ : قَالَ يَزِيدُ : الْعَمَاءُ أَيْ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ .

وحسبك بالترمذى والإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة وشيخه يزيد بن هارون حجة .

وفى رواية الإمام أحمد ((ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ بَعْدَ ذَلِكَ)) وفى هذا بيان لمعنى (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى

الْمَاءِ)^(٣٨) ، فالعرش والماء مخلوقان ، والقدرة صالحة لخلق العرش والماء والهواء فى آن واحد .

وقد تبين لك بهذا الحق الواضح البين عقلاً ونقلاً ، فهذا هو دين السلف الصالح جميعاً ، وما عداه

دين الضالين السفهاء ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

وقد ملأ أولئك - الذين لا يفقهون - الدنيا ضجيجاً وتشنيعاً على التقليد والمقلدين فى الفروع

الفقهية ، بينما هم مقلدون - أشنع تقليد وأبشعه - فى العقائد ، والدليل على ذلك أنك إذا سألت أى

٣٨ - سورة هود ، الآية ٧ .

عالم - منهم ممن لم يطلع على ضلالهم فى بدء الخلق - عن اعتقاده فى أن الحق عز وجل هو الأحد قد انفرد بالوجود حقاً وأن وجوده سابق لمخلوقاته بأجمعها وأنه لم يكن معه فى الأزل سواه ، اعترف بذلك وأقره ، فإذا قلت له : إن فلاناً يقول : إن معه موجودات فى الأزل ، شك فيما صرح لك بأنه يجزم به ويعتقده ، بمجرد ذكر ذلك الذى زل وزل وزل ، مع علمه بأنه غير معصوم من الخطأ ، وكم خطأ هؤلاء الصبية أفاضل من السلف بل من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، ويصعب عليهم تخطئة فلان ، وقد اعتقد خلاف ما عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى الخلق والسلف الصالح ، أهؤلاء يحترمون ؟ لا والله .

وقد آمننا بما جاء عن الله على مراد الله عز وجل ، وآمننا بما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذى يليق بالمنزه عن الجسمية قطعاً ، لا على مراد الخيالات والتصورات والأوهام . وكل ما خطر ببالك من تصور للذات العلية فهو هالك ، والله بخلاف ذلك . وليس للإنسان أن يذهب فى تصور الذات العلية المذهب الخاطئ ، حيث يقيس الخالق على المخلوق ، مع علمه بأنه المنزه الذى ليس له مثل .

على أن الحق قريب وهو ثابت فى فطر العقلاء ، ومن اليسير أن ينتبه المؤمن له وي طرح الخيالات والأوهام الباطلة ، فإن كل مؤمن صحيح الإيمان يوقن بأن الحق هو خالق المكان والزمان وسائر الأكوان ، وأن وجوده سبحانه سابق على وجودها ، وأنه عز شأنه كان ولا زمان ولا مكان ، وأنه سبحانه بعد خلق الزمان والمكان والأكوان لا يزال على ما عليه كان لم يتغير ولم يتبدل ، منزهاً عن الزمان والمكان والأكوان .

وقد تقدم لك أن انفراد الحق عز شأنه بالوجود قبل خلق المخلوقات من أمكنة وأزمنة وجهات ومكانى وزمانى هو عقيدة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر السلف الصالح ، وهو الذى يشبه العقل البرهانى ، وما سواه دجل لا سند له من عقل ولا نقل ، فلا يلتفت إليه .

أما كيف خلق الله الخلق ؟ فقد قال تعالى : (مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ

أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا^(٣٩) ، والعبرة بعموم اللفظ الإلهي الأقدس ، والإيجاد والإمداد شأنه سبحانه ، والله على كل شيء قدير .

وكما أن الإنسان إذا أراد شيئاً في مملكته الخاصة كان ، فإنرادتك في مملكتك الخاصة مثل مصغر يكفى لإقامة الحجة عليك في الإيمان بنفوذ إرادة المنفرد بالكمال المطلق سبحانه فى عوالم الإمكان ، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينَهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٤٠) .

الأحدية والكلام والقدر

هو الأحد سبحانه لا يشارك فى أحديته - فى ذاته وصفاته وفعله - لا يعلم كنهه غيره ، وإذا كان المحدود لا يدرك ما هو أوسع منه حداً ، فكيف يدرك غير المحدود ؟ .

قال تعالى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)^(٤١) ، والإدراك الإحاطة بكنهه ، وقال : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)^(٤٢) ، وضح عنه صلى الله عليه وسلم رؤية المؤمنين لربهم عز وجل ، والإدراك المنفى غير الرؤية المثبتة فيصح أن يراه ولكن لا يحيط به ، وهى غير الرؤية المقتضية للجسمية أو الحدوث ، وقد آمننا بأن قول الله حق وقول رسوله حق على الوجه الذى يليق بكماله الأقدس عز وجل ، لا تشبيه ولا تكييف ، سبحانك أنت كما أثبتت على نفسك لا نحصى ثناء عليك .

وكلامه عز وجل حق ، ومذهب السادة الصوفية فيه مذهب السلف الصالح أنه قديم غير مخلوق ، ومن زعم أنه حادث يشترك مع الحوادث فى الحدوث فهو ضال مخالف لمذهب السلف ، وفتنة القول بخلق القرآن - التى حمل رايتها ابن أبى داود - ثابتة ، ولا يشك عاقل فى أن الإمام أحمد ضرب ليقول بقوله فلم يقل ، وقوله تعالى : (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ)^(٤٣) فهو محدث بالنسبة لهم ، لم يعلموه من قبل ولم يعرفوا مثله عن آبائهم ، ومن زعم أنه محدث بالنسبة للذات العلية فقد خاب وخسر .

٣٩ - سورة الكهف ، سورة ٥١ .

٤٠ - سورة يس ، الآيات ٨٢ ، ٨٣ .

٤١ - سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

٤٢ - سورة القيامة ، الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

٤٣ - سورة الأنبياء ، الآية ٢ .

ويسأل بعض من لا يفقه كيف يحكى الحق قول أناس قبل وجودهم ؟ والجواب على ذلك يسير :
ألم يثبت أن القلم كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ رواه
الترمذى وغيره .

أفلم يكن ما سيخاطب الله به موسى والأنبياء مكتوباً قبل هذه النشأة الإنسانية ؟ لاشك أن ذلك
كان موجوداً فى عالم الظهور فى اللوح ، وكان قبل ذلك فى الغيب الذى لا يعلمه إلا الله فى البطون
وسلمنا علم كنهه الله .

أما القدر فإيمانهم فيه إيمان الصحابة رضوان الله عليهم لا يطلون حجة الله على خلقه ، فالتكليف
حق ، وقد أجمعت الأمة الإسلامية من جبرية ومعتزلة وأهل السنة على ذلك ، ولم يُسقط التكليف -
بشروطه المعروفة فى الشريعة المطهرة - إلا الملحدون الإباحية الخارجون عن الإسلام ، والقدر
والإرادة والقدرة لاشك فى مطابقتها للعلم الأزلى ، ولا تنافى بين الإحاطة العلمية والتكليف عند
الجميع ، وإذا كان خلاف الأمة الإسلامية بجميع طوائفها لم يتناول التكليف نفسه وإنما ينصب على
سبب التكليف ، فالخلاف فى حقيقته إذاً ليس بذى بال ، فإن من وقف على سبب التكليف بيقين
فسيعلم أنه مكلف وأن التكليف حق وسيعمل على ذلك الأساس ، ولا يضر إن كان سببه هذا أو
ذاك .

وحيث إن الأمة قد أجمعت على التكليف ، فلاشك أن من آمن به وجهل سببه فهو ناج عند
الجميع ، ونرد إلى العلم الإحاطى سر التوفيق بين ما قصر علمنا عنه ، ولا خلاف بين العلماء أنه من
الممكن أن يكون هناك من الحقائق ما إذا اطلعنا عليه أقمنا الحجة على أنفسنا بوجه من الوجوه الممكنة
والعقل النزيه لا يجعل ذلك فى حيز المستحيلات ، (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٤٤) .

وحدة الوجود

إذا أخذت قطعة من العجين ثم صورتها بصورة شجرة ، ثم هدمت تلك الصورة وصورتها بصورة إنسان ، ثم هدمت صورة الإنسان وجعلتها رغيفاً ، فذلك الجرم المحسوس الذى تعاقبت عليه الصور هو واحد فى الجميع ، وارجع بصورة العجين إلى أنه كان قبل ذلك قمحاً ، وقبل القمح تراباً ، فتلك الحقيقة المحسوسة المرئية الملموسة هى المادة المتطورة التى تلبس شتى الصور وتخلعها لتظهر بغيرها ، وكنه هذه المادة لا يزال مجهولاً .

وقد جعل الهندوس أساس الوجود روحاً نورانية كونت العوالم فى ذاتها من ذاتها على النسق السابق ، فهى أجزاء منها ، وتلك الحقيقة هى المادة لتلك العوالم بأجمعها ، فكل شئ جزء من ذلك النور ، ومنه الإنسان ، منه انبثق ، وإذا بلغ ذروة الرقى عاد إلى ذلك النور فاتحد به وتلاشى فيه ، ولذلك يقدسون النار مظهر النور ، ومثل ذلك مثل النبات يخرج من الأرض ثم ينمو حتى يبلغ أشده ثم يصير هشياً ثم يعود تراباً فيمتزج بأصله الأرض ، وهذه هى وحدة الوجود الهندوسية ، وهذا هو الفناء الهندوسى الذى يسمونه " نيرفانا " ، وهذه العقيدة الهندوسية لم يختلف المسلمون فى بطلانها ، سواء فى ذلك السلف والخلف ، من فقهاء ومحدثين وصوفية ومتكلمين وقراء ومفسرين .

والإجماع منعقد على أن ذات البارئ عز وجل يستحيل أن تكون محلاً للحوادث ولا الحوادث محلاً لها ، وقد اتفق السلف والخلف أن كل ما أوهم ذلك فى المأثور يستحيل حمله على المعهود فى الخلق ، وإنما يراد به معنى إلهى يليق بمن ليس كمثله شئ .

ولاشك فى أن ما يجوز فيه التجزئة ويخضع للاتحاد والامتزاج والانفصال وغير ذلك من صفات الحوادث - وإن سير به فى المهيع الروحانى - فقد سرى عليه قانون الحوادث ، حيث خالطها وخالطته ومازجها ومازجته ، ووقع الحد فى كله أو فى بعضه ، وما جاز عليه وصف من صفات الحوادث جاز عليه باقيها ، فانتفى عنه الوجوب وانتفى عنه القدم ، والأحد القديم منزه عن ذلك كله فلا تجسد ولا حلول ولا اتحاد ولا مخالطة ولا سريان ولا ممازجة ، تعالى الحق عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والفرق شاسع بين عقيدة الهندوس وبين الأحدية الإلهية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون ، فإن الله عز وجل خالق كل شئ بغير اقتطاع ، وإذا صح في الخلق أنك إذا نظرت في المرآة انطبعت صورتك فيها من غير أن ينقص منك شئ أو يقتطع أو ينفصل ، فالحق أقدم - وله المثل الأعلى - وهو المنزه عن الانفصال والاقتطاع وعن كل ما يجرى على الحوادث ، وبه قام كل شئ من غير مماسة أو مخالطة . والفرق شاسع بين من يعتقد أن الحق مادة الأشياء وبين من يعتقد أن الحق قيومها ، وهو على نزاهته سبحانه وعلوه عن صفات الحوادث والتغيير والتبديل ، فهو هو قبل إنشاء المخلوقات وبعد إنشائها ، وهو الفاعل المختار ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فوحدة الوجود التي يقصدها الصوفية في نثرهم وفي شعرهم حقيقتها أن المنفرد بالوجود الحق الغنى عما سواه الذي يفتقر إليه كل ما عداه هو الله وحده تبارك وتعالى .

فإن قال أحدهم : " لا موجود إلا الله " ، فإنما يعنى أن وجوده تبارك وتعالى هو الوجود الحق الذاتى لم يكتسبه من غيره ، أما ما سواه فهو تابع لوجود الحق ، وليس له وجود من ذاته حيث لم يوجد نفسه وإنما أوجده الله ، ولا وجوده بنفسه فإنه لا يقوم بذاته وإنما هو قائم بالله ، ولا وجوده لنفسه فإنه لا يستطيع التصرف فى ذاته وإنما هو الله يصرفه كيف يشاء ، فليس من ذاته ولا بذاته ولا لذاته فليس بالوجود الحقيقى ، ولولا إيجاد الحق له لما كان له وجود فهو من الله بالله الله .

وعلى هذا قد وضح أنهم يريدون بالوجود الحق الذات العلية ، وما سوى الذات لا بد له من اسم يليق به ، فالحق موجدٌ : فاعل ، والمخلوق موجدٌ : مفعول ، والاشتراك فى لفظ الوجود عند الناس اشتراك لفظى ليس باشتراك حقيقى ، وحقيقة الحق أحدية ، فوجوده حقيقى وما سواه ليس بوجود حقيقى ، ولا شئيته شئية ذاتية .

وقد تنزه البارئ تبارك وتعالى أن يشارك فى صفة أو اسم ، فالسمع الذاتى المنزه عن القيود والحدود والأعضاء والجوارح والآلات غير سمع المخلوقات المحدود بالقيود والآلات ، فالاشتراك فى اللفظ أمر غير الاشتراك فى الحقيقة ، ولا شبه بين سمع المخلوق وبين السمع الحقيقى بأى وجه من الوجوه ، حيث الماهية غير الماهية .

وهل يعقل اشتراك حقيقى بين العلم الذاتى المطلق الذى تنشأ عنه الموجودات - وهو سابق عليها - وبين العلم الحادث عن وجود الحوادث ؟ .

على أنك إذا حققت النظر وجدت أنك ما سمعت إلا بفضل الله وما سمعت بأذنك ، وما علمت إلا بالله لا بنفسك ، فأنت بالله لا بك .

وعين الماء وإن اشتركت فى اللفظ مع عين الإنسان فهى غيرها ، وكلاهما ممكن ، والحق يعلو عن التصورات والأمثال ، ومن عبّر عن نور القمر فى البحر بأنه نور الشمس فليس بكاذب ، فقد نشأ عنها بغير اقتطاع منها ، وهذا مثل تقريبي لكلام السادة الصوفية الذى يرجع معناه إلى أن سائر الممكنات قائمة بالحق لا بذاتها .

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)^(٤٥) ، لا يحتاج لشيء ويمد العوالم كلها بجاراتها ، يمسك السماء أن تقع على الأرض ، ويمسك الطير ، وهو قيوم كل شيء .

ومن لم يفرق بين وحدة كافر - يجعل صاحبها الحق سبحانه مادة الوجود وذلك باطل - وبين وحدة ينفى فيها المؤمن ذلك الكفر وينادى بأن الحق سبحانه هو قيوم الوجود بلا كيف ولا مثل ، فقد برهن على جهله العريق .

فكل ما ذكر من كلام القوم رضى الله عنهم مما يفهم منه أنه لا موجود إلا الله فهو على هذا المهيع النورانى ، أن لا موجود وجوداً ذاتياً إلا الله ، وهو الحق الذى عليه جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم رضوان الله على الجميع .

الصانع الحكيم هو الفاعل المختار

من فرض مبدأ الوجود جماداً سلب العلم والاختيار فلا بد من أن يفرض أنه قديم ، وإلا لما صح كونه مبدأ ، وسواء جعله جسماً أو مادة أو ما يسمونه هيولى - ويقصدون به المادة عارية عن الصورة وهو فرض خيالى - أو سديماً ساكناً أو متحركاً متحداً أو مفترقاً ، فالمعقول أنه ليس هناك داع لتغيره عما هو عليه حيث لم يطرأ عليه طارئ ، ومادامت خصائصه فيه ولم يزد عليه شيء ، ومادام هو فى

٤٥ - سورة آل عمران ، الآية ٢ .

الأزل بغير بداية كما افترضه .

وكفتا الميزان المتعادلتان على طول الزمن إذا رجحت إحداهما على الأخرى فلا بد من سبب مرجح ، ولا يصح أن يكون منهما ، لأن فرض أنهما أزليان ولم يطرأ عليهما طارئ يمنع ذلك ، فلا بد إذاً أن يكون الأمر الحادث من غيرهما .

وليس يضيرنا إن سايرنا ذوى الافتراضات المخطئة حتى تتم إقامة الحجة ، فمن فرض أن إحدى الكفتين تتفاعل أجزاءها فتتآكل على طول الزمن ، حتى إذا وصلت إلى حد خاص رجحت الكفة الأخرى مثلاً - فهذا اعتراف منه بأن السبب المرجح مقيد بالمدّة التي يتم فيها هذا التفاعل - فهو أمر مقيد بالزمان وليس بأزلى .

وكذلك إن فرض أن جزأين أو أكثر من أجزاء ذلك الجماد المفروض كانا مفترقين وكلاهما متحرك حتى التقى أحدهما بالآخر فنتج عن التقائهما ذلك الحادث ، فقد احتاج التقاؤهما إلى مدّة يتم فيها هذا الالتقاء ، فهو أمر مقيد بالزمان وليس بأزلى .

وكذلك كل فرض يفرض للحادث فى ذلك الجماد لا بد أن يتقيد بالزمان ، ومصدر الوجود - المؤثر الأول - لا يجوز مجال إلا أن يكون أزلياً ، وعلى هذا ففرض أن مبدأ الوجود جماد سلب العلم والاختيار فرض باطل يتناقض مع العلم الصحيح ، وإذاً لا بد أن يكون المؤثر المرجح غير هذا الوجود الملازم للحوادث الذى لا يصلح أن يكون محدثاً لشيء .

ومن جعل مصدر الوجود عليماً ولكنه سلب الاختيار ، فقد جعل حاله كحال الجماد من حيث إن فعله آلى بلا قصد ولا اختيار ، ويلزم من هذا الفرض الترجيح بلا مرجح كذلك ، فإنه لو كان فاعلاً بالإيجاب الذاتى لا بالاختيار لما تخلف شيء فى الوجود عن شيء ، لأن كل ما يجوز فى عالم الإمكان يستوى بالنسبة إلى الواجب ، وهذا خلاف المشاهد بالضرورة .

أما الفاعل المختار فإنه سيعين الوجه الذى يريده من شتى الجائزات ، وحيث إنه مختار فليس لأحد أن يسأل لماذا اختار هذا وترك هذا ، فإن ذلك له .

ولا يجوز أن يكون ذلك الاختيار حادثاً لأن ذاته قديمة وصفاته قديمة ، فهو يريد ما أراد أزلاً .

الممكن لا يقبل الوجود فى الأزل

وإذا كانت طبيعة الممكن ألا يكون وجوده من ذاته وإنما هو منحة أسديت إليه من المنعم ، ومقتضى كون المنعم أعطاه الوجود أنه كان مسلوب الوجود ثم أعطيه ، وما كان غير موجود ثم أعطى الوجود فهو مسبوق بالعدم ، فهو بمقتضى رتبته يأبى الوجود فى الأزل ، فليس لأحد أن يقول لماذا لم يوجد المختار أزلياً ؟ .

وإنما يوجده موجد على ما هو عليه فى رتبته من حيث هى ، وهى أنه غير قابل للوجود فى الأزل، يوجده بحسب ما اختار له مما يجوز عليه .

وقد ضرب قوم مثلاً لمقارنة العلة لمعلوها فى الحوادث بمقارنة حركة الإصبع لحركة الخاتم ، وفاتهم أن الفاعل - سبحانه - هو المتقدم عليهما ، لا العلة ولا المعلول .

فالحق عز وجل هو العليم الحكيم الفاعل المختار ، تنزه عن أن يتقيد بعبادة أو خرق عادة ، فهو خالق العادات يخرقها أو يسيرها نسقاً كيف يشاء ، (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ)^(٤٦) .

وهو المتفرد سبحانه بالأزلية ، ولا تنبغى لغيره ، فلا يقارنه فى أزليته أحد ، سبحانه هو الواحد الأحد .

الثيوصوفيزم - الروحانية الحديثة فى أوروبا

ومن مبادئهم الاعتراف بالخالق وبخلود الروح والقول بتناسخ الأرواح . وهذه العقيدة مستمدة من عقائد الهندوس ، " فإن الكائنات - وفقاً لتعاليم الفيذا الكتاب الذى يقدسونه - نشأت من الله وإلى الله سوف تعود بواسطة الترقى والنشوء الدائم ، والنفس عند انفصالها من هذا الجسد الفانى لا تفقد كل جسمانية ولا تتضعع فى نفس الكون العظيمة ، بل يبقى لها جسم مجيد كجسم الآلهة مصوغ من الله - وهذا هو الشفع السرى - أى النفس التى هى شرارة أو شعاع من النار الإلهية مع جسمها اللطيف الفائق البهاء ، يلبث دائماً مستعداً للاتحاد بجسد جديد منظور عندما تضطره إلى ذلك شريعة الكائن الأسمى " انتهى ملخصاً من تعاليم الهندوس .

٤٦ - سورة القصص ، الآية ٦٨ .

وجعلوا التجسيدات الأرضية للأرواح كمدرسة تتهدب فيها بإرشاد الأرواح التى كمل تطهيرها ، وهم يدعون إلى مكارم الأخلاق كدعوة الأديان ، ويزعمون أن هذا هو المقصود من البعث الذى جاءت به الأنبياء ، ويجعلون الجزاء حاصلاً فى هذه التجسيدات الأرضية ، ويستدلون على ذلك بما ينقلونه من أخبار من يستحضرون أرواحهم ، وهذا الدليل غير موثوق به ، فقد ثبت لديهم أن بعض تلك الأرواح التى يقومون باستحضارها تكذب عليهم وتضلّهم .

ولو كان الأمر كما يدعون لكان سادة الخلق من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين - وحاشاهم من ذلك - مستحقين للعذاب فى هذه النشأة الأرضية لأنهم أشد الناس بلاء فيها .

وأعجب ممن يأخذ بنجر غير المعصوم ويترك خبر المعصوم الذى شهد له الحق تبارك وتعالى بالصدق والأمانة والكمال ، ولو كان هذا حقاً لما أخفاه الأنبياء - وهم المعصومون عليهم الصلاة والسلام - ولأوضحوه للناس ، قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)^(٤٧) .

وقد ثبت أن كفار قريش أنكروا البعث وقالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَافاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)^(٤٨) ، (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)^(٤٩) ، فقد استبعد الكفار إحياء هذه الأجساد البالية المختلطة بالتراب .

أما كون الروح تتخذ جسداً آخر غير الجسد البالى فليس هذا هو موطن النزاع بين الكفار وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم إن الحشر للأرواح مجردة عن أجسادها ، أو متشحة بأجساد أخرى غير هذه الأجساد التى بليت ، لما كان هناك ما يدعو لإنكارهم .

وأى داع لأن يرسل الرسول بتناسخ الأرواح ، فيعطى قومه صورة غير الحقيقة التى أرسل بها ، مع أنه هاد إلى الحق بعيد عن الضلال ؟ لاسيما وهم يستبعدون الصورة التى جاء بها ، وهو مأمور بتبليغ ما أنزل إليه كما هو ، وكذلك الأنبياء السابقون لم يدعوا قومهم إلى القول بالتناسخ .

وكل ما جاء به أهل التناسخ من كلامهم لا يعد دليلاً على التناسخ ، والأنبياء جاءوا جميعاً بعقيدة

٤٧ - سورة النحل ، الآية ٤٤ .

٤٨ - سورة المؤمنون ، الآية ٨٢ .

٤٩ - سورة يس ، الآيات ٧٨ ، ٧٩ .

واحدة صريحة ليس فيها لبس ولا غموض .

ومن زعم أن الأجساد إذا اختلطت بالتراب صارت زرعاً فأكله الناس واختلط بأجسامهم فلا يستطيع حشرها لأنها إما أن تكون فى جسد إنسان أو فى جسد آخر أو آخر متفرقة فى أناس على طول الأزمان ، فقد تعجل الحكم ولم يتحر الحقيقة ، فإن القدرة المطلقة فى مكنتها أن تحفظ كل جسد من الاختلاط المؤدى للصورة التى يحيلها خيال أولئك القوم وإن لم يشعروا .

ومن ذلك أن يختص البعث بخلاصة من كل جسم لا تعدو عليها المؤثرات ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يحفظ عجب الذنب من البلى ، رواه البخارى ومسلم فى الصحيح ، وكما حفظ عجب الذنب يحفظ غيره .

ومن شارك الكفار فى جهلهم بالقدرة الإلهية ، وزعم أن الحق سبحانه لا يقدر على إعادة هذه الأجساد وبعثها بعد أن صارت رفاتاً وعظاماً ، فحكمه حكمهم .

وهب أن إنساناً أكل إنساناً - كما يروى عن نيام نيام - أفليس من الممكن أن يعوض الله الجسد بطريق من طرق الغذاء من ملكه الواسع ، وينزل ذلك الجسد المأكول بغير أن يختلط بجسد الآكل ؟ . من شك فى أن القدرة صالحة لذلك فهو جاهل بسعة القدرة كافر بربه ، وكل ما فى الأمر أن يتطلب ذلك خرق عادة - فيا سبحان الله - ومن رب العادات وخوارق العادات ؟ .

إن الحق سبحانه لا يعجزه شئ ، (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٥٠) ، قال تعالى : (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ، أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)^(٥١) ، (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)^(٥٢) ، (وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)^(٥٣) .

وأهل التزكية - الصوفية المسلمون - يؤمنون بالبعث كما جاء بالكتاب والسنة ، وينبذون تلك الدعاوى التى لم ينزل الله بها سلطاناً ، ويردون القول بتناسخ الأرواح .

٥٠ - سورة النحل ، الآية ٨ .

٥١ - سورة الإسراء ، الآيات ٥٠ ، ٥١ .

٥٢ - سورة طه ، الآية ٥٥ .

٥٣ - سورة الروم ، الآية ٢٥ .

ولكنهم يثبتون الوراثة المذكورة في حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم : ((فَضَّلَ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ)) ، ((إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا مَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ)) رواه الإمام أحمد بسند حسن وكذلك الحاكم وأصحاب السنن وابن حبان في صحيحه .

ومن الناس من أعطاه الله تبارك وتعالى وراثة الخليل عليه السلام أو واحد من الأنبياء عليهم السلام ، كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أبي ذر رضى الله عنه أنه أشبه عيسى عليه السلام فى ورعه ، رواه الترمذى وغيره وأحد أسانيده حسن .

ولا نبوة بعده صلى الله عليه وسلم بحال ، قال تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (٥٤) .

فهو صلى الله عليه وسلم متحقق بكل معانى خاتم النبيين ، فإذا كان معنى خاتم مصدق وأفضل وآخر ، فهو مصدق وأفضل وآخر ، ولا يصح حذف معنى من معانى خاتم .

فلا نبى بعده ولا رسول ، لأن النبى من أهله الله لشرع يعمل به فى نفسه وأوحى إليه بذلك الشرع ، فإن أمره بإبلاغه ولو لإنسان واحد فهو رسول .

فإن نفى الله النبوة بعده صلى الله عليه وسلم فقد انتفت الرسالة لأنها لا تتأتى إلا لنبى .

محاربة الباطنية الملاحدة للإسلام

الشرع الإسلامى هو شرع كل زمان ومكان ، ومقتضى كون شرعه صلى الله عليه وسلم هو خاتمة الشرائع ، أن يكون جامعاً لحاجات البشرية ، كافلاً لمصالحهم الجسدية والروحية فى مختلف العصور . وإذا كان الواقع أصدق برهان فقد حقق ذلك بأوضح صورة ، حيث كان الإسلام كفيلاً بسعادة الأمم التى اعتنقته ونفذت تعاليمه فى حياتها الفردية والاجتماعية .

وإن الصراع الحقيقى مازال قائماً بين الوثنية المادية وأهل التوحيد الإلهى ، فالماديون معسكر ، والإلهيون معسكر ، ووراء الماديين كل المذاهب التى فى معنى المادية ، وتشمل كل من جعل مصدر الوجود هو المادة التى يتألف منها الكون ، سواء جعله روحاً أو جسداً .

وقد سلكوا مسلك الجمعيات السرية ، وتآمروا على الإسلام بأقصى صور العداوة الهدامة ، فإذا واتتهم الظروف ظهوروا بها صريحة غير مقنعة ، وإلا تلونوا بكل لون ولبسوا لكل عصر لباساً يناسبه .

حربهم باسم الفلسفة

فإذا سادت الفلسفة عصراً وطبعته بطابعها انتحلوا الفلسفة انتحالاً ، وأنكروا حشر الأجساد ليشككوا فى القدرة ، وقد تقدم وجه الحق فيه ، وجعلوا الكون الحادث قديماً ليتخلصوا إلى تجويز الشبه على من تنزه عنه ، وتشككوا فى الإحاطة العلمية بدعوى أنها لا تجتمع مع التكليف ، وهذا زور لأن العلم ليس بصفة تأثير ، وإنما هو كشف الحقائق على ما هى عليه ، فالعلم لا ينافى التكليف .

حربهم باسم التصوف

وإذا سادت المبادئ الروحية عصراً انتسبوا إلى السادة الصوفية ، وزعموا أن هناك حقيقة تنافى الشريعة وباطناً يخالف الظاهر ، فإذا عرفت حقيقتهم التى يدعون الناس إليها وجدتها الكفر فى أسفل دركاته من استباحة للمحرمات ، وخلط بين الخالق والمخلوق مما يؤول إلى أن الخالق هو مادة الكون ، وهى لون من ألوان الوثنية المادية .

ومنهم من يدعى الكشف أو رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أو جبريل ، أو الإلهام الربانى ، ويجر أتباعه إلى مخالفة الشريعة وترك واجباتها .

وهؤلاء هم الذين يصح فيهم أنهم فرع هندوسى أو يهودى أو مجوسى .

وما من صوفى إلا وهو يبرأ منهم ، ولا يرى فيهم إلا ألد الخلق للصوفية عداوة ولسائر المسلمين ، فمن عداهم من الصوفية فقد أخطأ خطأ مبيئاً ، وأصل الطريق تصحيح العقيدة بحيث تطابق ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ومن فسدت عقيدته فلا دين له ولا طريق ، ومن بدأ سيره ومجاهدته للتقرب من الحق وهو معتقد أن الحقيقة تخالف الشريعة وأنه إذا وصل إليها تبدت له على غير ما يعتقد المسلمون فهو كافر بالله ورسوله ، ما دخل الإسلام ولا عرفه .

فإذا كانت تلك بدايته ، فمنهايته إلى الاستدراج فالنار .

وإنما الوصول هو التحقق بمسائل الإيمان ، والجمع بين علم اليقين وعين اليقين ، كمن آمن بالملائكة ورأى الملائكة ، وقد وقع ذلك لأصحابه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يزداد بالإسلام استمساكاً ويقيناً ، قال صلى الله عليه وسلم : ((لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ)) رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما وابن حبان والحاكم وصححه ، فالحقيقة هي التحقق الكامل بالشريعة المطهرة ، ومن زعم سقوط التكليف عن من له عقل ممن تأهل له فقد خرج عن الإسلام ، والميزان هو الشريعة المحمدية ، فمن تمسك بها فهو على هدى ، ومن ضل عنها فهو فى ضلال ميين .

حربهم باسم الإصلاح فى التشريع

ومن هؤلاء الملحدون من يزعم أنه مصلح ، أو أنه المهدي المنتظر ، أو أن المسيح حل فيه ، وما مقصودهم إلا محاربة الإسلام والمسلمين .

والبهائية فرع من هؤلاء الباطنية الملاحدة ، زعموا أنه يصح أن يجيء مصلحون فى الفروع لا فى العقائد ، وما هو إصلاحهم الذى زعموه ؟ ادعائهم الكاذب أنهم يستطيعون أن ينسخوا الشريعة المحمدية ، ثم ماذا ؟ جعلوا لكل أمة أن تشرع لنفسها ما شاءت ، فالحلال فى المشرق هو حرام فى المغرب ، وقد افتضحوا وعرفت مؤامرتهم أن المقصود منها التخلص من الشرع المحمدي الشريف خاتم الشرائع ، وهل هذا الذى جاءوا به يحتاج إلى وحى ؟ إنه هو دين الوثنيين الذين لا يعرفون ديناً .

ولما قيل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فلا ينسخ شرعه ، والوحى السماوى لا ينسخ إلا بالوحى السماوى ، وقد انقطع وحى النبوة بعده صلى الله عليه وسلم ، قالوا : إن وظيفتنا الإصلاح فى الفروع لا العقائد ، يا مساكين ! وهل وظيفة النبوة التغيير فى العقائد ؟ كلا إنما وظيفتهم دائرتها الأحكام كحلال وحرام ، كما قال سيدنا عيسى عليه السلام : (**وَلَأَجَلٌ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**)^(٥٥) ، وهؤلاء القوم أثبتوا لأنفسهم حقيقة وظيفة النبوة ، وإن تهربوا من اسم النبوة ، وهل العبرة إلا بالحقائق ! وزعموا أن القرآن لم يبينه النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنهم الذين يبينونه للناس ، وخلاصة بيانهم دين غير دين الإسلام الذى جاء به الأنبياء جميعاً ، وقد قال

٥٥ - سورة آل عمران ، الآية ٥٠ .

تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)^(٥٦) ، فهو صلى الله عليه وسلم الذى أمره الله ببيان القرآن وهو الذكر ، فهل بين أو لم يبين ؟ من زعم أنه لم يبين كتاب الله الذى أنزل للناس فهو كافر بالله خارج عن الإسلام ، ومن آمن أنه بين القرآن كما أمره الله فلا يعقل أن يترك بيان الرسول الذى عهد إليه ربه بالبيان ، وقد قال تعالى فيه : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ)^(٥٧) ، وهل بعد بيان المعصوم صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى دعاوى لم تأت لا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم - دعاوى خاطئة كاذبة لا سند لها من التنزيل ؟ .

وقد فضحوا أنفسهم بإنكارهم البعث ، وبذلك قد أعلنوا أنهم شعبة من الباطل الهدام الذى يتناقض فيهدم نفسه ، فقد غيروا فى العقائد التى جاء بها الأنبياء مع زعمهم أنهم ما جاءوا لتغيير شئ منها .

حربهم بدعوى نبوة غير تشريعية

ومنهم من ادعى نبوة غير تشريعية ، فإذا كان كتاب الله الكريم قد اعترف بنبوة غير تشريعية ، فقد نفى وجودها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقوله تعالى : (وَخَائِمَ النَّبِيِّينَ)^(٥٨) ، ومحاوله صرفها عن معناها فى اللغة التى نزل بها القرآن محاولة فاشلة تفضح صاحبها ، فإن معناها آخر النبيين بإجماع أهل العلم باللغة ، أو أن الكتاب لا يعترف إلا بالنبوة التشريعية ، وإذ ذاك لا وجود لنبوة غير تشريعية ، فهم كاذبون على كل حال .

ومن هؤلاء القاديانية وهم من الكافرين ، حيث هدموا أصلاً من أصول الإسلام ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم آخر النبيين ولا نبى بعده ولا رسول ، كما هو صريح كتاب الله عز وجل وكلامه الشريف صلى الله عليه وسلم .

قال صلى الله عليه وسلم : ((كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُسَوِّسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي)) رواه البخارى فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه .

٥٦ - سورة النحل ، الآية ٤٤ .

٥٧ - سورة النجم ، الآية ٣ .

٥٨ - سورة الأحزاب ، الآية ٤٠ .

وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
((إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ)) رواه الترمذى وصححه .
وعن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم : ((أُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخَتَمَ بِي النَّبِيُّونَ)) متفق عليه .

وعن ثوبان رضى الله عنه ، عنه صلى الله عليه وسلم : ((أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَابًا كُلُّهُمْ يَدْعِي أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي)) أخرجه مسلم فى صحيحه .
وهذا بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الله الذى أرسله الله به وأمره ببيانه ، (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)^(٥٩) ، وهل بعد بيان الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ؟ .

ومع أنهم ادعوا أنهم غير مشرعين ، غيروا فى شرع الرسول صلى الله عليه وسلم بالوسائل الخبيثة التى سلكها سلفهم الباطنية أعداء الإسلام من قبل ، بالتأويل الباطل الذى هو آية أصحاب الزيف ، كما ادعوا فى إبطال الجهاد فى سبيل الله ، مع أن أعداء الإسلام هم الذين يهاجموننا فى ديارنا، والدفاع عن النفس وعن بلادنا بلاد الإسلام وعن أعراضنا ودمائنا لا يمتري فى مشروعيته عاقل مسلماً أو كافراً ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)) .

مع أن لهم ضلالات فى العقائد ، حيث أولوا البعث فى الآخرة بالبعث الروحى ، وأولوا الجنة والنار بالنعيم المعنوى والشقاء المعنوى ، وأنكروا كل ما جاء فى النصوص فى الكتاب والسنة .
فالهدف الذى يرمى إليه الملحدون فى تلونهم وتشكلهم إما تغيير العقائد وإما تغيير نظم الحياة العملية التى جعلت فى الشرع أساساً لمعاملات الناس ، وانتظام حياتهم الاجتماعية التى تنظم الحرية الفردية والتعاون والعدالة الاجتماعية بالحكمة المعقولة والحق الصريح .

حربهم باسم السلفية والانتصار للسنة

وإذا كانت الروح السائدة في عصرِ روح الحديث ، نظروا في الأحاديث المتشابهة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : ((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا)) ، وحملوه على النزول المتعارف في نزول الأجسام لا نزولاً غير النزول الجسماني ، وحملوا الاستواء على العرش على الجلوس المعروف في الجسمانيات ، مع أن السلف أطبقوا على عدم التكييف ، وأن النزول غير النزول المعروف والاستواء غير الاستواء المعروف في استواء الخلق ، وهؤلاء بعد تصريحهم بحقيقة مذهبهم وتكييفهم للوارد لا ينفعهم أن يقولوا النزول والاستواء المعروف بغير كيف ، لأن الاستواء المعروف مكيف محدد ، وإنما يقولون ذلك تضليلاً لمن لم يصل إلى مقام التحقيق العلمي ، فليسوا من السلف ولا من الخلف ، وقد تقدم بيان ذلك ، وقد أطبق المحققون على أن علم الحق سبحانه غير علم الخلق وسمعه غير سمع الخلق وكلامه غير كلامهم ، وإذا سألناهم : هل اليد التي نسبت للحق هي الجارحة المعروفة من يد الخلق ؟ قالوا لك : لا ، هي يد غير يد الخلق .

إذا نزوله غير نزول الخلق ، واستواؤه غير استواء الخلق ، وهذا هو الحق الذي يليق بالمنزه سبحانه وهذه هي السلفية الصحيحة .

وكأنه لم يرد عن الله ورسوله إلا المتشابه الذي يصرفونه عن مراد الشارع إلى نسبة الحق للجسمية الصريحة أو ما يلزم فيه الجسمية ، مع وجود بيانه صريحاً من كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومآل مذهبهم في التجسيم إلى الدين الوثني المادي ، فقد ألهاها المادة . وقد تبين لك في كل هذه الألوان التي تلونوا بها ، أن المقصود فيها جميعاً شيء واحد : هو إرجاع الكائنات إلى الدعوى الوثنية المادية .

حربهم باسم الاجتهاد في الفروع

ومنهم قوم ادعوا الاجتهاد ، وبدأوا حملتهم بإشاعة الشك في السلف الصالح من عصر الصحابة إلى الآن ، والذي يرمون إليه هو هدم الحدود من قطع ليد السارق ورجم للزاني ، مع أن قطع يد أثيمة واحدة ينقذ آلاف من الأرواح البريئة ، فأى الأمرين أمعن في القسوة ؟ .

وكم انتشرت أمراض بأسباب الزنا وأزهقت نفوس بريئة ، ويزعمون وهم كاذبون أن إعجاز القرآن إنما كان بالصرفة عن الإتيان بمثله ، وما اختاروا هذا الوجه إلا لمرض فى أفئدتهم والعياذ بالله .
وهذا القول باطل من وجوه :

الأول : أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة لا القرآن وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل .
الثانى : أن التحدى وقع بالقرآن على كل العرب ، فلو كان الإعجاز بالصرفة لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة لكل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه ، فيكون الإتيان بمثل القرآن معتاداً له ، والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه - فيلزم أن يكون القرآن كذلك - وليس كذلك .
الثالث : أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتاداً من قبل ، لتحقيق الصرفة من بعد ، فيجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها .

والمعجزة لا بد أن يعرفوها ويعرفوا عجزهم عنها حتى يصح أن تكون معجزة ، فلا بد أن يعرفوا أنهم قادرون على الإتيان بمثله ثم إنهم عجزوا عن ذلك ، حتى يصح قيام الحجة عليهم ، وكونهم صرفوا عن الإتيان بمثله من غير معرفة منهم بالصرفة ، لا تقوم بالصرفة الحجة ، بخلاف ما إذا علموا غير ذلك .

وقد شهد فصحاء قريش ، وهم اللد فى عداوته صلى الله عليه وسلم ، بسمو القرآن الكريم وفصاحته ، وحسبك بقول الوليد بن المغيرة حجة وهو عدو له عنيد ، فى المستدرک على الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : " يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنت كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته " ، هو على شرط البخارى وأقره الذهبى .

فهذا هو الإعجاز الذى علمه الفصحاء منهم ، ومن قرأ القرآن وقارن بينه وبين كلام العرب عرف

بالبداهة أن هذا لون آخر فى أسلوبه ونقاوة ألفاظه وحكمه ومعناه ومقاصده ومدلولاته .
فهذا المهيع هو سبيل الإعجاز ، وأما مسألة الصرفة فلم يقل بها أحد من السلف ، وإنما هو اختراع متأخر ومحض دعوى لا يقوم عليها دليل ، ويشبه الخلاف هنا الفروع .
وينكرون كرامات الأولياء ، وحيث إن الكرامات هى فرع معجزات الأنبياء ، ومرجع المعجزة إلى القدرة الإلهية ، فحقيقة مقصودهم فى هدم الكرامة هدم الولاية ، ثم ينتقلون إلى هدم المعجزة وهدم النبوة ، وبذلك يصلون بمن يتبعهم من الأغرار إلى إنكار القدرة ، فهم يخرجون بأتباعهم شيئاً فشيئاً إلى الكفر والإباحية .

وجهلوا الفرق بين السنن الإلهية والسنن الكونية ، ويلبسون على بسطاء العقول قائلين لهم : إن السنن الإلهية لا يمكن أن تنخرق ، ولا يريدون بالسنن الإلهية الوجه العلمى الذى يرجع إلى الدليل القطعى ، وهو عدم وجود ما كان مستحيلًا عقلياً ، كاجتماع النقيضين أو ارتفاعهما ، أو شرعياً كوجود نبي بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المستحيل الشرعى يرجع إلى المستحيل العقلى ، وخبر الحق حق ، ولا يؤيد الله بالمعجزة كاذباً كما هو معروف فى موضعه .

وفرق بين المستحيل العقلى وبين ما يعتبر فى عادة الناس مستحيلاً وليس بمستحيل على الله ، ففى قدرته سبحانه أن يسير إنساناً على الماء ، أو يطيره فى الهواء بغير الأسباب العادية المعروفة .
وخلاصة السنن الإلهية التى لا يحتمل أن تنقض بحال أن الواجب يستحيل عليه العدم ، وأن المستحيل - وهو ما يلزم من فرض وجوده وجود المستحيل لذاته - لا يصح وجوده بحال ، وما عدا ذلك فهو ممكن راجع للمشيئة الإلهية ، ((مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)) .

فالسنن الإلهية لا تنخرق ، أما السنن الكونية فجائز خرقها ، وأصل هذا فى الدليل العقلى أن الفاعل إما أن يكون مقيداً بالنظام الكونى الذى سنه للكون وليس مختاراً فى تغييره ، أو هو مختار فى ذلك يفعل ما يشاء مما تقتضيه حكمته العلية ، ولا دليل على وجوب تقييده بتلك النظم التى سنها هو للكون ، لا عقلاً ولا شرعاً ، بل قد قام الدليل على أنه سبحانه الفاعل المختار الحكيم ، فالبرهان العقلى الصحيح لا يرتب على تغيير ذلك النظام الكونى أى محال ، وعلى ذلك فهو من الممكنات الداخلة تحت السنة الإلهية .

والملاحدون أعداء الإسلام يستبعدون خرق عادة - وهو جائز فى العقل - بينما هم قائلون بالعظائم، فقد جوزوا الترجيح بلا مرجح فى كل لحظة من لحظات الكون ، حيث جعلوا المادة الجاهلة العمياء التى لا تعقل منظمة لكل ما فى الوجود من آيات وعلم وحكمة ، فهم قائلون بسلسلة من المستحيلات فى كل لحظة وفى كل مكان ، والمسيحيون إن استبعدوا خرق عادة جائزة فهم يؤمنون بأن المسيح ولد بلا أب ، واليهود يؤمنون بمعجزات لأنبيائهم ، وعباد بوذا وأمثالهم والمجوس يؤمنون بالخورق ، فممن نخشى من القول بخرق العادة ؟ أنخشى ممن لا يفهمون ؟ .

فالسنن الإلهية لا تنخرق حقاً ، ولكن ليس كما يزعم هؤلاء فى العادات ، فإن الخالق سبحانه غير مقيد بها ، فالمعجزة من السنن الإلهية التى أبدأها الحق سبحانه تأييداً لأنبيائه ، والكرامة فرع المعجزة ، وليس فى القرآن كله فى معنى قوله تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)^(٦٠) المعنى الذى زعموه من أنه عز وجل لا يغير ما يعرف الناس من نظم سوى المستحيلات العقلية ، وقد قال عز شأنه : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٦١) ، أى مما هو فى دائرة الإمكان ، فليس ثمة أى مانع أن يأتى الله بالشمس من المغرب مثلاً ، وقد كان ذلك دليل سيدنا الخليل عليه السلام (فَبِهَتَ الَّذِي كَفَرَ)^(٦٢) ، وخلق سيدنا عيسى عليه السلام بلا أب مجمع عليه عند الأمة المحمدية ، وهو خلاف العادة ، ولكنه جار على السنن الإلهية من شمول القدرة لها ولأمثالها .

وهؤلاء المتلونون حرب على السنة ، وينكرون أن يكون فيها متواتر ، مع أنه ثابت عند أهل الاختصاص المحدثين ، ويشككون الناس فى الصحاح وفى رواية الحديث ، وفى كل من يعتقدون فيه الخير من العلماء والأولياء بالافتراء عليهم ونسبتهم إلى ما هم عليه ، فهم أجرأ الناس على الأكاذيب التاريخية ويخترعونها جزافاً فى سبيل باطلهم ، بل دأبوا على التهوين من فضل الأنبياء قبل الصالحين . وقد خذل الله أولئك القوم ، فلم يبوءوا إلا بالخيبة والفشل ، أرأيت من يريد أن يطفىء الشمس بنفخاته وصيحاته ! .

قال صلى الله عليه وسلم : ((عَلَيْكُمْ يَسْتَبِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا

٦٠ - سورة الفتح ، الآية ٢٣ .

٦١ - سورة النحل ، الآية ٨ .

٦٢ - سورة البقرة ، الآية ٢٥٨ .

بِالتَّوَّاجِدِ)) ، وكل ما أقره الرسول من عمل الصحابة فهو من شرعه الشريف صلى الله عليه وسلم ، فهذا هو الميزان الحق .

وقد قال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)^(٦٣) ، ولن تجد البشرية السعادة في غير هذا الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهو الحل الوحيد لمشاكل البشرية في الأصول والأحكام والمعاد ، ولسنا بصدد بيان كل العقائد ، وإنما نبهنا هنا على ما ذاع فيه الخلاف ، ولبس المغرضون فيه على من لا يعرف التحقيق العلمى .

عقيدة السادة الصوفية

ولنذكر عقيدة السادة الصوفية نقلاً عن " الرسالة القشيرية " للإمام العالم الجامع بين الشريعة والحقيقة أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رضى الله عنه .

قال رضى الله عنه : " وهذه فصول تشتمل على بيان عقائدهم فى مسائل التوحيد ذكرناها على وجه الترتيب ، قال شيوخ هذه الطريقة على ما يدل عليه متفرقات كلامهم ومجموعاتها ومصنفاتهم فى التوحيد : إن الحق سبحانه وتعالى موجود قديم واحد حكيم قادر عليم قاهر رحيم مريد سميع مجيد رفيع متكلم بصير متكبر قدير حى أحد باق صمد ، وإنه عالم بعلم ، قادر بقدره ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، حى بجياة ، باق ببقاء ، وله يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء سبحانه على التخصيص ، وله الوجه الجميل ، وصفات ذاته مختصة بذاته ، لا يقال هى هو ولا هى أغيار له^(٦٤) ، بل هى صفات له أزلية ونعوت سرمدية ، وأنه أحدى الذات ليس يشبه شيئاً من المصنوعات ولا يشبهه شئ من المخلوقات ، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا صفاته أعراضاً ، ولا يتصور فى الأوهام ولا يتقدر فى العقول ، ولا له جهة ولا مكان ولا يجرى عليه وقت وزمان ، ولا يجوز فى وصفه زيادة ولا نقصان ، ولا يخصه هيئة وقد ، ولا يقطعه نهاية وحد ، ولا يحله حادث ، ولا يجمله على الفعل باعث ، ولا يجوز عليه لون ولا كون ، ولا ينصره مدد ولا عون ، ولا يخرج عن

٦٣ - سورة التوبة ، الآية ٣٣ .

٦٤ - فليست غير الذات من حيث الوجود ، إذ لا وجود لها غير وجود الذات ، وليست عين الذات من حيث التعقل ، فإن العقل يدرك الذات ويدرك أنها متصفة بصفات الكمال مع القطع بأن ليس لها وجود مستقل عن الذات وإلا تعددت القدماء وهذا مستحيل ، ولا وجود غير وجود الذات مفتقر إلى الذات ، فإن هذه صفة الممكنات ، وكمالات الحق قديمة واجبة ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

قدرته مقدور ، ولا ينفك عن حكمه مفطور . ولا يعزب عن علمه معلوم ، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم ، لا يقال له أين ولا حيث ولا كيف ، ولا يستفتح له وجود فيقال استوفى الأجل والزمان ، ولا يقال : لم فعل ما فعل ؟ إذ لا علة لأفعاله ، ولا يقال : ما هو ؟ إذ لا جنس له فيتميز بإمارة عن أشكاله ، يرى لا عن مقابلة ، ويرى غيره لا عن ماقلة ، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، يفعل ما يريد ، ويذل لحكمته العبيد ، لا يجرى فى سلطانه إلا ما يشاء ، ولا يحصل فى ملكه غير ما سبق به القضاء ، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون ، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون ، خالق أكساب العباد خيرها وشرها ، ومبدع ما فى العالم من الأعيان والآثار قلها وكثرها ، ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه ، ومتعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه ، ومؤيد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين والنكر ، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بخلفائه الراشدين ، ثم حارس الحق وناصره بما يوضحه من حجج الدين على السنة أوليائه ، عصم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة ، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة ، وأنجز ما وعد من نصره الدين بقوله : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)^(٦٥) ، فهذه فصول تشير إلى أصول المشايخ على وجه الإيجاز ، وبالله التوفيق " انتهى .

ولنذكر هنا عقيدة العارف الكامل الإمام سيدى محى الدين بن عربى رضى الله عنه منقولة من كتابه " الفتوحات المكية " ، وبها يتضح لكل منصف براءته من كل مخالفة للشريعة المطهرة ، وكل ما ينسب إليه مما يخالف ما أعلنه ووضحه من الاعتقاد فهو كذب عليه وزور ، وقد دس عليه كما دس على غيره ، وكذب عليه كما كذب على من هو خير منه ، ولا يصح الأخذ إلا بما تقلده شرعاً .

قال رضى الله عنه فى أوائل الجزء الأول من الفتوحات : " فى إخوانى المؤمنين ، ختم الله لنا ولكم بالحسنى ، لما سمعت قوله تعالى عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته : (إِنِّي

أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ^(٦٦) ، فأشهد عليه السلام قومه - مع كونهم مكذابين به - على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بأحديته ، لما علم عليه السلام أن الله سبحانه سيوقف عباده بين يديه ويسألهم عما هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهد شهادته ، وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه ولهذا يدبر الشيطان عند الأذان وله حُصاصٌ ، وفي رواية وله ضُراطٌ ، وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة فيلزمه أن يشهد له ، فيكون بتلك الشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له ، وهو عدو محض ليس له إلينا خير البتة لعنه الله ، وإذا كان العدو لا بد أن يشهد لك بما أشهدته به على نفسك ، فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك ومن هو على دينك وملتك ، وأحرى أن تشهد أنت في الدار الدنيا على نفسك بالوحدانية والإيمان .

فيا إخوتى ويا أحبائى رضى الله عنكم ، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى فى كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه ، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه ، أنه يشهد قولاً وعقداً أن الله تعالى إله واحد لا ثانى له فى ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد ، مالك لا شريك له ، ملك لا وزير له ، صانع لا مدبر معه ، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى فى وجوده ، فالعالم كله موجود به ، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه ، لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، بل وجود مطلق غير مقيد ، قائم بنفسه ، ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان ، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء ، مقدس عن الجهات والأقطار ، مرئى بالقلوب والأبصار إذا شاء ، استوى على عرشه كما قاله وعلى المعنى الذى أراد ، كما أن العرش وما سواه به استوى ، وله الآخرة والأولى ، ليس له مثل معقول ولا دلت عليه العقول ، لا يحده زمان ولا يقله مكان ، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان ، خلق الممكن والمكان ، وأنشأ الزمان ، وقال أنا الواحد الحى ، لا يؤوده حفظ المخلوقات ، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات ، تعالى أن تحله

الحوادث أو يجلها ، أو تكون بعده أو يكون قبلها ، بل يقال كان ولا شيء معه ، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذى أبدعه ، فهو القيوم الذى لا ينام والقهار الذى لا يرام ، ليس كمثله شيء ، خلق العرش وجعله حد الاستواء ، وأنشأ الكرسي وأوسع الأرض والسماوات العلى ، اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً بعلمه فى خلقه إلى يوم الفصل والقضاء ، أبداع العالم كله على غير مثال سبق ، وخلق الخلق وأخلق الذى خلق ، أنزل الأرواح فى الأشباح أمناء ، وجعل هذه الأشباح المنزلة لها الأرواح فى الأرض خلفاء ، وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه ، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه ، خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب أو جب ذلك عليه ، لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء قدير . أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه ؟ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٦٧) ؟ علم الأشياء منها قبل وجودها ، ثم أوجدها على حد ما علمها ، فلم يزل عالماً بالأشياء ، لم يتجدد له علم عند تجدد الإنشاء ، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها وبه حكّم عليها من شاء وحكمها ، علم الكليات على الإطلاق كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق ، فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله عما يشركون ، فعال لما يريد ، فهو المريد الكائنات فى عالم الأرض والسماوات ، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراد ، كما أنه لم يرد حتى علمه ، إذ يستحيل فى العقل أن يريد ما لا يعلم ، أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد ، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق فى غير حى ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها ، فما فى الوجود طاعة ولا عصيان ، ولا ربح ولا خسران ، ولا عبد ولا حر ، ولا برد ولا حر ، ولا حياة ولا موت ، ولا حصول ولا فوت ، ولا نهار ولا ليل ، ولا اعتدال ولا ميل ، ولا بر ولا بحر ، ولا شفع ولا وتر ، ولا جوهر ولا عرض ، ولا صحة ولا مرض ، ولا فرح ولا ترح ، ولا روح ولا شبح ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا تركيب ولا تحليل ، ولا كثير ولا قليل ، ولا غداة ولا أصيل ، ولا بياض ولا سواد ، ولا

٦٧ - سورة الملك ، الآية ١٤ .

رقاد ولا سهاد ، ولا ظاهر ولا باطن ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا يابس ولا رطب ، ولا قشر ولا لب ، ولا شئ من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى ، وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده ؟ فكيف يوجد المختار ما لا يريد ؟ لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن ، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه ، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله تعالى إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن لا يريدوه ما فعلوه ، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه ، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته ، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود وإن كان ثابتاً في العلم في عينه ، ثم أوجد العالم من غير تفكير ولا تدبر عن جهل أو عدم علم فيعطيه التفكير والتدبر علم ما جهل - جل وعلا عن ذلك - بل أوجده عن العلم السابق وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان ، فلا يريد في الوجود على الحقيقة سواه إذ هو القائل سبحانه : (وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)^(٦٨) ، وأنه سبحانه كما علم فأحكم وأراد فخصص وقدر فأوجد ، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى ، لا يجب سمعه البعد فهو القريب ، ولا يجب بصره القرب فهو البعيد ، يسمع كلام النفس في النفس وصوت المماساة الخفية عند اللمس ، ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء ، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور وهو السميع البصير ، تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم - بكلام قديم أزلى كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته - كلم به موسى عليه السلام ، سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا لغات ، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات ، فكلامه سبحانه من غير لهأة ولا لسان ، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان ، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان ، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان ، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان ، كما أن

٦٨ - سورة الإنسان ، الآية ٣٠ .

حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان ، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان ، فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عميم الإحسان جسيم الامتنان ، كل ما سواه فهو عن جوده فائض ، وعدله الباسط له والقابض ، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه ، لا شريك له في ملكه ولا مدبر معه في ملكه ، إن أنعم فنعم فذلك فضله ، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيث ، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف ، كل ما سواه تحت سلطان قهره ومتصرف عن إرادته وأمره ، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور ، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور ، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله ، أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي ، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثم سواه ، فالكل تحت تصريف أسمائه ، فقبضة تحت أسماء بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه ، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان ، أو شقيماً لما كان من ذلك في شأن ، لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد ، فمنهم الشقى والسعيد هنا وفي يوم المعاد ، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالى في الصلاة هي خمس وهي خمسون ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ، لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي ، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر ، إلا بوهب إلهي وجود رحمانى لمن اعتنى الله به من عباده وسبق له ذلك بحضرة إشهده ، فعلم حين أعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم ، وأنه من رقائق القديم ، فسبحان من لا فاعل سواه ، ولا موجود لنفسه إلا إياه ، والله خلقكم وما تعملون ، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، فله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين .

الشهادة الثانية : وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسى بتوحيده ، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسى بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباها من وجوده ، ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ صلى الله عليه وسلم ما أنزل من ربه إليه ، وأدى أمانته

ونصح أمته ، ووقف فى حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه فخطب وذكر وخوف وحذر وبشر وأذر ووعد وأوعد وأمطر وأرعد ، وما خص بذلك التذكير أحداً من أحدٍ عن أذن الواحد الصمد ، ثم قال : ألا هل بلغت ؟ فقالوا : بلغت يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد ، وإنى مؤمن بكل ما جاء به صلى الله عليه وسلم مما علمت وما لم أعلم ، فما جاء به فقرر أن الموت عن أجل مسمى عند الله إذا جاء لا يؤخر فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك ، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتانى القبر حق ، وعذاب القبر حق ، وبعث الأجساد من القبور حق ، والعرض على الله تعالى حق ، والحوض حق ، والميزان حق ، وتطير الصحف حق ، والصراط حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وفريقاً فى الجنة وفريقاً فى النار حق ، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة ، وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وشفاعة الملائكة والنبين والمؤمنين وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق ، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق ، والتأبيد للمؤمنين والموحدين فى النعيم المقيم فى الجنان حق ، والتأبيد لأهل النار فى النار حق ، وكل ما جاءت به الكتب والرسول من عند الله علم أو جهل حق .

فهذه شهادتى على نفسى أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلتها حيثما كان ، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان ، وثبتنا عليه الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان ، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان " انتهى .

ومعنى قوله رضى الله عنه : " تعالى أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها " ، المراد نفى القبلية الزمنية ، أما سبق وجود الحق على الحوادث فهو تقدم ذاتى مقدس عن الزمان ، وهو غير التقدم الزمانى فإن الزمان مخلوق .

وإذا كان تقدم أمس مثلاً على اليوم لا يحتاج لزمن يتقدم فيه - كما ذكره المحققون - وإلا لاحتاج الزمن إلى زمن والزمن إلى زمن... إلخ ، فكيف بمن ليس كمثله شئ ؟ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، ولذلك قال بعدها : " فإن القبل والبعث من صيغ الزمان الذى أبدعه " .

وبذلك يتبين أن المراد نفى القبلية الزمانية ، وتقرير القبلية الذاتية ، فإنها هى اللاتقة بالمنزه عن الزمان .

وكما أنه تعالى منزّه عن المكان . وقد كان ولا مكان ، ولما خلق المكان فما زال سبحانه على ما هو عليه منزهاً عن المكان ، فكذلك الزمان .

ثم ذكر رضى الله تعالى عنه هذه العقيدة باصطلاح آخر ثم اصطلاح آخر ، والمعنى واحد وإن كانت الألفاظ متغايرة ، وكل ما تفرق فى كتابه بل فى سائر كتبه يرجع إلى هذه العقيدة مهما اختلف التعبير ، يعرف ذلك كل من كان من أهل هذا الشأن وخالط اصطلاح الصوفية رضى الله عنهم وتمكن فى فهمه وبرئ من الهوى .

وكل ما لم يمكن حمله علمياً على هذا الوجه فهو مدسوس عليه وهو منه برئ ، وارجع إلى مقدمة "اليواقيت والجواهر" للشيخ الشعرانى فى إثبات أن ما خالف الشريعة مدسوس على الشيخ الأكبر رضى الله عنه ، وكتاب "براءة ابن العربى عن طعن الغبى" للحافظ السيوطى ، وكتاب "الاغتباط" للعلامة الفيروزابادى صاحب القاموس ، وقد رجح كثيرون ممن كان يطعن فيه وفى الصوفية عن طعنه عندما تبين لهم أنهم لم يصيبوا مقاصدهم وأن مرادهم غير ما كانوا فهموه ، وعلى كل حال الأصل فى المؤمن البراءة ، ومتهمه هو المطالب بإثبات تهمته ، وحال المؤمن يحمل على الصلاح ، وقد نقل قوم شيئاً من كلامه لم يفهموه ، ثم أخذوا ينسبون إليه عقائد هو برئ منها ، ومن عرف ما تواضع عليه الصوفية من التعبير لا يجد فيه أى مخالفة لاتساقه بالواضح من كلامهم رضى الله عنهم ، والمنصف يرد المبهم إليه .

الحق سبحانه منزه عن الأمكنة والجهات

قد تقدم بيان تنزيه الحق عن الجسمية ، فهو سبحانه منزه عن الأطوال والأبعاد ، ولا خلاف بين المسلمين فى ذلك ، حتى الكرامية المجسمة عندما قالوا بالجسمية قالوا هو جسم لا كالأجسام ، وهذا تناقض أو نفاق ، فإنهم إن أثبتوا الجسمية بحقيقتها من أن الجسم ذات له طول وعرض وعمق ، فإن نفوا عنه الطول والعرض والعمق كان تناقضاً ، وهؤلاء هم الذين اختلف العلماء فى كفرهم ، وإن لم ينفوه وإنما نفوا أن يكون كالأجسام من حيث أوصاف أخرى ، لم ينفعهم النفى لأنهم جعلوه فرداً من أفراد الأجسام يشمله حد الجسم فيكون فرداً من كلى ، وهؤلاء الذين لا خلاف بين محققى العلماء فى كفرهم لأنهم مشركون .

وكذلك قد اختلف العلماء فىمن نسب إليه سبحانه الجهة الفوقية المعروفة التى تقابل التحتية ، ولما كانت الجهة فرع الجسمية ، فإن الجسم ذو ستة سطوح ، فإذا وضع الجسم بإزاء جسم آخر أو أجسام نشأ عن هذا الوضع الجهات الست ، فوق وتحت ويمين ويسار وأمام وخلف ، والجهات اعتبارية قد تتغير بتغيير الوضع والاعتبار ، فمن أثبت الجهة للحق سبحانه لزمه القول بالجسمية ، فإن التزم الجسمية وقال بها فلا خلاف بين العلماء فى كفره ، ومن نفاها فقد تناقض فإنه بالقول بالجهة أثبت الجسمية وقد نفاها فى آن واحد حيث صرح بنفى الجسمية ، وهؤلاء هم الذين اختلف العلماء فى كفرهم رجوعاً إلى القاعدة : هل لازم المذهب مذهب وإن لم يلتزمه صاحبه ، أو ليس بمذهب ؟ .
أما من نسب للحق سبحانه أنه تحت الأشياء فهو كافر بالإجماع حيث لا شبهة له .

حديث الجارية

أنه صلى الله عليه وسلم سأها : ((أَيْنَ اللّٰهُ ؟ قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : مَنْ أَنَا ؟ قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ اللّٰهِ ، قَالَ : أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)) .

وكلمة الوفاق بين العلماء المسلمين قاطبة من أهل السنة سلفاً وخلفاً أن أين الله - بفرض أنها وردت كذلك - ليس معناها أن الله تبارك وتعالى له مكان والرسول صلى الله عليه وسلم يسأل عن المكان الذى هو متحيز فيه ، ولا خلاف فى أن ذلك باطل مردود .

فإنه سبحانه خالق الأكوان بما فيها المكان ، ووجوده سابق عليها ، فكان قبل الأمكنة بلا مكان ، وجل سبحانه عن أن يتغير أو يتبدل ، فلما خلق المكان فهو هو سبحانه على ما عليه كان ، غنى عن المكان والأكوان .

وحيث إن من الكافرين من يعتقد أن الحق جالس على العرش فى السماء ، الجلوس المعروف ، وقال المسيحيون : إنه أضعده ولده فأجلسه بجواره على العرش - انظر أناجيلهم - فإذا سألت أحدهم : أين الله ؟ فسيجيبك : فى السماء ، وواضح أن قوله فى السماء لا يدل على أنه موحد له ، فلا يزال على كفره فى اعتقاد الولد له ، سبحانه عما يقول الظالمون .

ومن الواضح البين أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان يسألها سؤالاً يفيد جوابه نفى الشرك ، وحيث إن السؤال بأين الله بمعنى السؤال عن المكان ، والجواب فى السماء ، لا يفيدان نفى الشرك ، فنحن نجزم بأن هذا السؤال لم يصدر منه صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه .

فإن صح فى اللغة أين الله ، بمعنى تعيين المعبود لا تعيين المكان ، كان ذلك هو المقصود ، كمن يسأل ولداً عن أبيه مثلاً وهو لا يعرفه : أين أبوك من هؤلاء القوم ؟ وهو لا يريد أن يسأل عن مكانه وإنما يريد أن يعينه له ، فالجواب : هذا أبى .

وروى أن الحق سبحانه وتعالى ينادى يوم القيامة : " أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع " ، ومعنى هذا : يا من كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع هلموا ، فيقوموا ، وبدهى أنه ليس سؤالاً عن مكانهم .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم سأل حصيناً : ((كم إلهاً تعبد ؟ قال : ستة فى الأرض وواحد فى السماء)) ، فمثلها إن سأله سائل : أين الله ! فسيقول : فى السماء ، ولا يزال على كفره وشركه فلا يدل السؤال والجواب على أنه مؤمن ، وإنما السؤال الذى يدل جوابه على التوحيد كأن يقول لها : من ربك ؟ أو من تعبدين ؟ فتقول : الله أو أعبد الله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)) ، ولم يقل صلى الله عليه وسلم حتى يقولوا إن الله له مكان فى السماء .

وحيث إن الروايات قد تكون باللفظ وقد تكون بمعنى ما فهم الراوى ، وقد ورد أن الجارية كانت

عجماء ، وأن جوابها كان بالإشارة ، وقد صح في حديث آخر لمن أراد صلى الله عليه وسلم معرفة إيمانها بلفظ ((من ربك ؟)) ، وكان هذا هو السؤال الذى يعين التوحيد ، فنحن نجزم بأن أفصح الخلق الذى أوتى جوامع الكلم لا يصح أن يسأل وهو يريد معرفة توحيد الجارية سؤالاً يريد به وجهاً لا يعين التوحيد ، ونرد فهم من ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ونعتبره وهماً وسوء فهم .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي سلمة عن الشريد بن سويد الثقفي رضى الله عنه أن أمه أوصت أن يعنق عنها رقبة مؤمنة ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : عندي جارية سوداء ثوبية ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((ائت بها ، فدعوها فجاءت ، فقال لها : من ربك ؟ قالت : الله ، فقال : من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أعنتها فإنها مؤمنة)) وكذلك رواه البزار ، فهذا هو السؤال والجواب الذى يتعين فيهما التوحيد والإيمان .

فإما أن يكون صلى الله عليه وسلم سألها : من ربك ؟ كما مر في الحديث ، وروى الراوى بما فهم من معنى الإشارة - فقد أجازوا الرواية بما يفهم من المعنى - أو أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : أين ربك ؟ وإنما يريد سؤالها عن الإله الذى تعبده ، وهل هى تعبد الأصنام التى يعبدها الكافرون ، وقد عرفت أنها كانت عجماء فتكلمت بالإشارة ، فالمراد بالسؤال والجواب هنا هو المراد فى الحديث الآخر حتى على فرض أن السؤال كان بأين ، والحديث يفسر بعضه بعضاً ، وخير الفهم والتفسير للحديث ما كان بحديث المعصوم صلى الله عليه وسلم لا بالأراء المخترعة والأهواء ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال لا يصح به استدلال .

وقد اتفق المحققون على أن الأصل فى الروايات التى تروى بالمعنى ، أن تتوارد على معنى واحد مهما اختلف التعبير ، وقد اختلف فى اسم الصحابى فى الرواية التى فيها أين الله .

وإذا احتملت الرواية وجوهاً فلا يصح الأخذ إلا بالوجه الذى يتفق مع الكمال والعلم والحكمة ، وبهذا قد تبين أن الاستدلال بهذه الرواية على أن الله مكاناً أو أنه سبحانه يتحيز فى جهة هو دليل سوء الفهم وعدم الفقه عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خطأ والاستدلال بها معلول .

المعية الإلهية

وقد تقدم فى بيان عقائد القوم رضى الله عنهم أنهم يؤمنون بكل ما نسب الحق عز وجل إلى نفسه من غير تكييف ، لا على الوجه المعروف فى الحوادث ، فكما أن ذاته لا تشبه شيئاً من الذوات ، فصفاته تعالى لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقات ، ولا فعله يشبه فعل الخلق ، وهذا أمر متفق عليه ليس بين المسلمين فيه خلاف .

وبيننا أن الفعل إذا نسب للحق تجرد عن الزمان ، فيريد ويشاء إذا نسبت للخلق دخلها الحال والاستقبال ، فإذا نسبت إلى الحق زال منها الزمان فلا حال ولا استقبال لأنها نسبت إلى خالق الزمان، فهى إرادة مطلقة أزلية أبدية غير مقيدة بالزمان .

وكذلك الظرف إذا نسب للحق زالت منه الظرفية ، لأنه تبارك وتعالى خالق الظروف والأمكنة ، فكان قبل الأمكنة بلا مكان ، وجل سبحانه عن أن يتغير ويتبدل ، فلم يكن سبحانه فاقداً لكمال حتى يفيد من وجود المخلوقات ذلك الكمال ، (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)^(٦٩) .

فإذا سمعت قوله تعالى : (أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ)^(٧٠) ، فالأصل فى لفظة (فِي) أنها إذا نسبت إلى ما يجوز عليه الظرفية كانت بمعنى الظرفية ، وإذا نسبت إلى من لا يجوز عليه الظرفية انتفت عنها الظرفية ، فكانت بالمعنى المنزه اللائق بالمنزه سبحانه ، ومتى عرفت أن ذاته تعالى ليست بجسم ولا تشبه الأجسام فى سائر صفاتها ، أيقنت أنها ليست بالمعنى الجسمانى ، وإنما هى بمعنى آخر يليق بالذات الأقدس ، وعرفت أن قوله صلى الله عليه وسلم : ((يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)) ، وقوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ)^(٧١) هو نزول ومجئ إلهى بعيد عن كل وصف فى النزول والمجئ المعروف عن الأجسام .

ومن الناس من أثبت للحق سبحانه المعية المعروفة فى الجسمانيات ، وهذا يلزمه الحلول والتجسيم ومثبته لا خلاف بين علماء المسلمين فى كفره ، ويعتقدون أنه سبحانه حال فى كل مكان ، كحلول

٦٩ - سورة الصافات ، الآية ١٨٠ .

٧٠ - سورة الملك ، الآية ١٦ .

٧١ - سورة الفجر ، الآية ٢٢ .

الماء فى العود والروح فى الجسد ، وهذا ضلال بين ، وهو سبحانه كان قبل كل شىء بلا مكان ، وهو على ما عليه كان ، منزه عن التغير والتبدل ، وأن يحل فى مكان ، أو يتجسد ، أو يتحد بمخلوق .
وأراد آخرون أن ينزهوه عن هذا القول فوصفوا فوقيته على كل شىء بالوصف الجسمانى ، فحيّزوه فى ناحية من الكون ، فوقعوا فيما فروا منه ، ويقولون قال فلان هو فوق كل شىء بذاته ومع كل شىء بعلمه ، وهل علمه ينفصل عن ذاته ، وهل " بذاته " وردت فى آية من كتاب الله أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لم ترد ، ولماذا قلده فى العقيدة ؟ وهل فى العقائد تقليد ؟ .
والأصل فى ذلك أنهم لم يقطعوا بأن الحق منزه عن الجسمية ، ولو نزوه عنها لسقطت جميع لوازم الجسمية من خيالاتهم .

وبيان ذلك أنك إن فرضت أن فوقية الذات على العرش هى الفوقية المعروفة فيما نشاهد فلا يسعك إلا أن تربط بينها وبين المجئ والنزول اللذين نسبا للحق فى الكتاب والسنة ، فتقول إنهما كذلك المجئ والنزول المعروف لنا فيما نشاهد .

فإذا جاء ونزل ، إما أن تقول إنه مازال على الفوقية المعروفة فتكون قد نفيت النزول المعروف ، فإنه لا يوجد شىء من الأجسام يكون فوق شىء فينزل ولا يزال على فوقيته ، فكأنك قلت : ينزل ولا ينزل ، وهذا هو الجمع بين الضدين وهو محال ، أو تثبت المجئ الحقيقى المعروف فتكون قد أزلت عنه الفوقية المعروفة ، فإن أولت المجئ والنزول وقلت بالفوقية المعروفة فقد افتضحت ، وإن أولت الفوقية وقلت بالمجئ المعروف فقد افتضحت .

وإنما يلزم التناقض من ظن أن فوقيته سبحانه الفوقية الخلقية ، ونفى عنه الفوقية الإلهية التى لا تشبه بوجه فوقية الخلق ، وظن أن المجئ هو المجئ الخلقى ونفى عنه سبحانه المجئ الإلهى المنزه ، وهذا هو الضلال البين الذى يشبه تناقض الكفار القائلين : ثلاثة هى واحد وواحد هو ثلاثة فى وقت واحد .

ولا ندرى ما الذى دها عقولهم حتى حملوا النصوص على الفوقية التى تجماع فوقية الخلق ، وقد نفاها الشرع والعقل ، مع أن الباحثين فى المادة - حتى الملاحدة - بدأوا يغيرون رأيهم فى الأجسام

المادية ، ويردونها إلى أصل غير الأجسام ، وقد قرر بعضهم أن الأثير نصف مادي ، فالمؤمنون أولى بترك الجمود الجسماني .

والمجئ والفوقية والمعية المادية مكيفة ، أما غير المادية فلا يتطرق لها كيف ، وهذه هي السلفية الصحيحة .

ولماذا لم يحملها هؤلاء على الفوقية المنزهة التي تفارق فوقية الخلق ، ولدينا النصوص التي تعين ذلك ؟ .

وكذلك المجئ وغيره ، وبذلك يخرجون من التناقض الذي هو آية ضعف التفكير ، وديننا هو الدين الواحد الذي لم ينفك دين غيره عن التناقض والتهافت .

والتحقيق العلمي فى ذلك أن الحق سبحانه ليس بجسم ، فما نسب إليه ليس بجسماني ، فهي فوقية ليست بجسمانية ، ونزول ليس بجسماني ، ومجئ ليس بجسماني ، ومعية ليست بجسمانية .

وقوله تعالى : (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)^(٧٢) ، أما الإحاطة بالحادثة فهي كإحاطة السوار بالمعصم ، والإحاطة الإلهية منزهة عن أن تشبه الإحاطة بالحادثة .

وقرب الحق من عباده ثابت ، (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(٧٣) - أقرب إليهم من أنفسهم ، فإنه سبحانه قيوهم لا يشاءون إلا أن يشاء ، هو الذى يتصرف فيهم كيف يشاء ، ولا حول لهم ولا قوة إلا بالله العلى العظيم - القرب المنزه عن جميع صفات القرب الحادث .

سبحانك أين كنت ! أى حيث كنت ولا مكان ، وأين تكون كما كنت ولا مكان ، وحديث الترمذى أنه سئل صلى الله عليه وسلم : أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ قَالَ : ((كَانَ فِي عَمَاءِ)) والعماء غيب وقد فسره السلف : أى ليس معه شئ ، وهو الموافق لما جاء فى الأحاديث الصحيحة ، فليس هناك أى جمع بين ضدين ولا نقيضين .

ومن الجهل المركب أن يقول بعض الضالين : إما أن يكون داخل الكون أو خارجه ، ويزعم الجاهل الكاذب على ربه أن نفيهما معاً وصف له بالعدم ، وهو منتهى الغباء ، وهو دليل على أنه

٧٢ - سورة البروج ، الآية ٢٠ .

٧٣ - سورة ق ، الآية ١٦ .

مجسم ضال فإن ذلك لا يلزم إلا فى التجسيم ، فإننا ننفى عنه سبحانه دخوله فى الكون الدخول الجسمانى ، وننفى عنه سبحانه خروجه عن الكون الخروج الجسمانى ، ونثبت له سبحانه الفوقية الإلهية والقرب الإلهى والإحاطة الإلهية المنزهة عن الصور الجسمانية بسائر أوصافها من حلول واتحاد وتداخل وامتزاج ومكان ومسافة ، فإن ذاته منزهة عن الجسمية ولوازمها ، فوصفه منزه عن ذلك كله، ونسلم الأمر لله حقاً ، ونفوضه له صدقاً ، لا تفويض المنافقين الذين يجرمون التقليد فى الفروع وهم مقلدون فى العقائد لقوم لا يجدون مضاضة فى مخالفتهم فى الفروع ، فيا سبحان الله .

أولئك الذين يظهرون التفويض زوراً ، ويبطنون التجسيم الوثنى الذى جاء الإسلام بتحطيمه ، واعلم أن من لم تنزل آثار التجسيم من قلبه ، فمازالت آيات الوثنية فيه ، فإنه سبحانه ليس كمثله شئ من جميع الوجوه .

آمنا بما أنزل الله على مراد الله ، وهذه هى عقيدة السلف الصالح قاطبة لا تكييف ولا تشبيه .

المستشرقون وتشويه الحقائق

كتب المستشرقون بحسب ما تراءى لهم فى التصوف الإسلامى ، وهم على عقائدهم فى دينهم ، ولم يستطيعوا أن يخلصوا أنفسهم من الميل لىستطيعوا أن يدركوا حقيقة ما عليه الصوفية ، ولم يصحبوا من يجلى لهم مقامات السير وما ينشأ عنها ، وإذا كنا لا نثق بمن يأخذ علمه عن الكتب من المسلمين من غير توقيف من عالم بها ، فكيف بمن عقيدته غير عقيدة الإسلام وتفكيره غير التفكير الإسلامى ، هذا على فرض أنهم سلموا من القصد إلى تشويه الحقيقة .

وهذا الخلط الغريب الذى خلطوا فيه ، حتى لقد أخرجوا للتصوف فى الإسلام صورة ممسوخة لا تمت لصوفية الإسلام بسبب ، لا يتأتى ممن تنزه عن الغرض وبرئ من الهوى ، فإن الخطأ الذى لا عمد فيه لا يمكن أن يشوه الحقائق كل هذا التشويه .

وفى ظنى أن هؤلاء القوم عز عليهم أن تكون مسيحتهم التى يدينون بها أساسها الذى تقوم عليه أساس متناقض لا يمكن للعقل أن يتصوره : من إله هو واحد ، وهو ثلاثة ، وهو خالق ، وهو مخلوق ، وهو أب وهو ابن ، وهو عدل ، وقادر ، فيريد أن يغفر لمن أكل شجرة فيقتل بها من لا يستحق القتل ليغفر له ثم يغضب على من نفذ هذا القتل ، ولا يمكن بحال أن نتصور قديساً كسيدنا عيسى نبى الله ورسوله عليه السلام يأتى بمثل هذه الخيالات التى لا يقرها عقل ، وهل كلف الله غير العقلاء ؟ ومن كان مخلصاً فقد غلبه فهمه المسيحى .

وإذا شوها صورة من هم المثل الأعلى للمسلم العالم العامل بعلمه الذى بلغ ذروة التحقق بما جاء به الإسلام علماً وعملاً وتخلقاً ، فكيف بغيرهم ؟ وكأنهم أرادوا - من طريق خفى - أن يبرروا تناقضهم فصوروا السادة الصوفية فى صورة من يشاركون فى هذا التناقض ، فنسبوا إليهم أنهم قائلون بأن الخالق عز شأنه هو نفس الكون المخلوق ، فهو واحد ، وهو اثنان ، أو هو واحد وهو عدد كثير ، فكيف لا يسلم المسلمون لهم فى مسيحتهم أن يكون الواحد ثلاثة من وجه واحد .

والبون شاسع بين ما يقوله الصوفية وبين ما يزعمون ، وإليك بيان ذلك :

نسبة المخلوق إلى الخالق

لا خلاف بين العقلاء فى وجود واجب هو مصدر كل ما فى الكائنات من نظام وتديير وعلم وحكمة ، وجاءت الأديان بوصف الواجب بالكمال الأعلى ، لا خلاف بينهم فى ذلك ، وإنما اختلفوا فى فهم الكمال ، وذهب كل إلى وجه من الفروض فى نسبة الكائنات إلى الواجب سبحانه .
فزعم قوم أن الخالق أثر فى ذاته فحولها كلها أو بعضها فصيرها هذه الكائنات ، فهى هو وهو هى حقيقة ، ولا خلاف بين المسلمين الصوفية منهم وغير الصوفية فى أن هذه عقيدة باطلة ، وتغير الذات آية الحدوث ، والقائل بها كافر مشرك بالله سبحانه وتعالى ، وينسب هذا إلى وثنيى الهنود .
وإما أن تقولوا بعد هذا إن كل شئ من الكائنات المرئية وغيرها أو بعضها موجود بذاته مستغن عن ربه سبحانه وتعالى ، وهذا باطل أيضاً يرده الإسلام والمسلمون ، فإن الواجب لا يكون إلا ذا كمال مطلق ، والكمال المطلق لا يتصور إلا أحدياً ، ومن يصح أن يكون له نظير أرفع منه من كماله لا يمكن أن يكون له نظير .

أو تقولوا إن الكائنات مجذايرها مفتقرة إلى ربها سبحانه وتعالى لا يصح أن تستغنى عنه بحال ، وهو وحده الغنى بذاته عز وجل ، وهذا هو دين الأنبياء قاطبة ، وهذا عين القول بوحدة الوجود التى يعينها الصوفية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا اشَّاعِرُ كَلِمَةٌ لَيْدٍ أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ)) ، وقال تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)^(٧٤) ، قال الصوفية : " فإن فيه : لا قيومية له إلا به " ، ووحدة الوجود بهذا المعنى لا يصح لمؤمن إيمان إلا بالقول بها .

فنسبة المخلوق إلى خالقه نسبة الافتقار الذاتى إلى الغنى المطلق الذاتى .

وإذا صح أن مخلوقاً تظهر صورته فى مرأيا كثيرة ولا قيومية للصور إلا به ، فهو واحد وقد قامت به تلك الصور جميعها ، ومع ذلك فهى صور لم تجعله متعددأ ، ولم تتحول ذاته وتتفرق فتكون هى تلك الصور ، وكلها راجع إليه ولا تزال صوراً .

وهذا مثل فى الخلق ، تنزه ربنا سبحانه عنه وعن الأمثال ، فليس بجسم حتى تحله الصور ، وهو

٧٤ - سورة القصص ، الآية ٨٨ .

منزه عن الكيف وما يلزم منه الحد ، وقد يساق تقريباً لما يمكن أن يتجلى به سبحانه فى الكون من كمالاته المقدسة ، من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر .

وأبعد الناس عن القول بالتجسد والاتحاد هم الصوفية ، وإنما هو اختلاف فى التعبير ، فإذا قالوا : " لا موجود إلا الله " ، أى لا موجود الوجود الحق إلا الله ، فليس لسواه الغنى الذاتى .

والمفتقر فى وجوده ليس وجوده بوجوده ، وإنما هو ملك لمعطيه ، فالأزلى القديم فى عقيدة المسلمين واحد وكل ما سواه حادث ، به وجوده وبه قيوميته .

فالأحدية ثابتة ولها وجهها ، وتعدد الكائنات ثابت وله وجه ، فلا تناقض ولا تضاد ، إذ الوجهة منفكة .

فأين من هذا أن الأب ذات ، والابن ذات ، وروح القدس حمامة تطير بين السماء والأرض ، وكل أزلى قديم ، والثلاثة شئ واحد حقيقة ؟ .

أليس فى الناس عقول ؟ أليس هناك معيار للنقد ؟ ما أجمل الإنصاف ! .

وادعوا أن الصوفية قائلون بأزلية النور المحمدى ، وأنهم يتفوقون مع المسيحيين الذين قالوا بأزلية المسيح عليه السلام ، وهذا أمر لم يقل به أحد من الصوفية ولا غيرهم ، وإنما أراد القائلون بذلك تبرير القول بأزلية عبد الله ورسوله سيدنا عيسى عليه السلام .

والقائل بأن النور المحمدى أول مخلوق ، حسبك منه فى أنه ليس بأزلى التصريح بأنه مخلوق ، فلا تجتمع الأزلية وسبق العدم .

وإن لم يكن أول مخلوق النور المحمدى ، فليكن القلم أول مخلوق ، أو العرش ، أو الماء ، أو الهواء ، فلا بد من أن يكون ثم مخلوق هو الأول على كل حال ، والمخلوق الأول لا يعتبر فى الإسلام إلهاً ، أو ابن الله ، أو يستحق أى صفة من صفات الألوهية ، فأين من هذا أن جعلوا المسيح أزلياً ، وابناً لله ، وإلهاً من إله ؟ .

وقد نقل أبو إسحاق المروزي الحنبلى وغيره الإجماع على أن الأرواح كلها مؤمنها وكافرهما كانت مخلوقة قبل الأجساد ، وظاهر القرآن على ذلك .

قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)^(٧٥) ، وعلى ذلك الأحاديث الصحيحة أيضاً وهى البيان للكتاب ، ولا ضرورة لصرفها إلى معان لم ترد فى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجر ذلك إلى تحطيم النبوة المزعومة لسيدنا عيسى عليه السلام المترتبة على أنه من أم بلا أب ، فإن جميع الأرواح ستشترك مع سيدنا عيسى فى وجودها قبل جسد آدم عليه السلام ، ولما كان الجسد كالثوب أو البيت للروح ، والروح هى الإنسان العالم المريد السميع ، وكان الذى من مريم عليها السلام ليس بروح سيدنا عيسى وإنما هو جسده ، ثوبه ، بيته ، وكذلك كل البشر ، وسواء اشترك فى بناء البيت الذى تسكنه امرأة أو امرأة ورجل ، فذلك لا دخل له فى تكوين الروح ، فإنها موجودة قبل ذلك جميعها ، ومنها روح سيدنا عيسى عليه السلام وليست روحى ولا روحك ولا روح أحد من جسد أبينا ولا أمنا وإنما التراب من التراب .

وقوله تعالى فى سيدنا عيسى روح منه ، وفى الحديث روح الله ، بالإضافة هنا للملك كبيت الله وناقة الله وهى للتشريف ، قال تعالى : (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)^(٧٦) ، وكل النياق ملك لله وإنما خصصها للتشريف ، وقد قال تعالى : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)^(٧٧) ، روحنا أى جبريل ، أى روح من الأرواح التى نملكها ، بالإضافة للتشريف ، وهذا أمر معروف فى اللغة العربية .

والقائل بأن أول مخلوق هو النور ، أو الماء ، أو العرش ، أو القلم ، إن كان مصيباً فحسن ، وإن كان مخطئاً فلا يترتب على ذلك تنقيص للذات ولا وصف للمخلوق بصفة الخالق ولا وصف الخالق بصفة المخلوق ، فالأولية ثابتة لمخلوق ما .

والأمور الكونية شئ ، والأمور التى يترتب عليها تكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شئ آخر ، ولا يضر ذلك باعتقاد توحيد الله شيئاً ما قالت العقيدة أنه مخلوق مربوب لله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا ربوبية فيه ولا ألوهية ، (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)^(٧٨) ، ولم يقل أحد من المسلمين أن الله خلق إنساناً

٧٥ - سورة الأعراف ، الآية ١١ .

٧٦ - سورة الشمس ، الآية ١٣ .

٧٧ - سورة مريم ، الآية ١٧ .

٧٨ - سورة الأنبياء ، الآية ٢٦ ، ٢٧ .

ووكل إليه خلق الكون ، واعتقادهم أن الخالق وحده هو الله سبحانه وتعالى وما سواه مخلوق ، وأن المدبر وحده هو الله وما سواه عبد مأمور ، واعتقاد المسيحيين مستشرقين وغير مستشرقين - على ما فى كتبهم - أن الكلمة الأزلية هى الخالق للعالم والمدبر له والمحاسب له فى الآخرة ، فأين هذا من عقائد المسلمين ؟ .

وقد صرح الشيخ محبى الدين بن عربى بحدوث العالم فى الباب التاسع والستين من الفتوحات ، قال رضى الله عنه : " العالم كله موجود عن عدم ، ووجوده مستفاد من وجود من أوجده وهو الله تعالى ، فمحال أن يكون العالم أزل الوجود ، لأن حقيقة الموجد أن يوجد ما لم يكن موصوفاً عند نفسه بالوجود وهو المعدوم ، لا أنه يوجد ما كان موجوداً أزلاً فإن ذلك محال ، فإن العالم كله قائم بغيره لا بنفسه ، والسلام " انتهى .

ومثل القول بالأزلية فى البعد عن حقيقة ما عليه القوم القول بأنه صلى الله عليه وسلم يحل فى من يأتى بعده من الأولياء ، ولا يعتبر القائل بهذا مُسْلِماً ، فكيف يكون صوفياً ! والإسلام هو الحجة على من ينتسب إليه ، ومن خالف فقد افتضح .

والذى يظهر أن المستشرقين لم يفهموا معنى الوراثة التى جاءت فى الحديث : ((إِنْ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ)) ، والوارث الكامل من ورث النبى فى ظاهره وباطنه ، أى ما يتعلق بالجوارح الظاهرة وما يتعلق بالأخلاق الباطنة التى ترجع إلى معاملة القلب وما ينكشف للروح من مشاهدتها الصادقة ، لا أن باطن الدين ينافى ظاهره فإن ذلك ضلال مبين .

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنْ فِى السَّمَاءِ مَلَكِينَ أَحَدُهُمَا يَأْمُرُ بِالشَّدَةِ وَالْآخِرُ يَأْمُرُ بِاللِّينِ وَكُلُّ مَصِيبٍ ، جَبْرِيْلٌ وَمِيكَائِيلُ ، وَنَبِيَّانُ أَحَدُهُمَا يَأْمُرُ بِالشَّدَةِ وَالْآخِرُ يَأْمُرُ بِاللِّينِ وَكُلُّ مَصِيبٍ ، وَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ وَنُوحًا ، وَلى صَاحِبَانِ أَحَدُهُمَا يَأْمُرُ بِالشَّدَةِ وَالْآخِرُ يَأْمُرُ بِاللِّينِ وَكُلُّ مَصِيبٍ ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ)) قال الحافظ الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات . فهذه هى الوراثة المستمرة التى يقول بها المسلمون ، ورثوه فى التخلق بأخلاقه الحميدة وسيرته الرشيدة صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى الاقتداء لا حلول ولا تناسخ .

وحدثه صلى الله عليه وسلم في أبي ذر أنه أشبه عيسى عليه السلام في ورعه ، رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه ، وعن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من أحب أن ينظر إلى المسيح عيسى بن مريم - إلى بره وصدقه وجده - فليُنظر إلى أبي ذر)) رواه الطبرانى ، وروى عن ابن مسعود نحوه وفيه أحد الضعفاء ، وقد تقدم أصله في السنن .

ولم يحسنوا فهم شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم التي يعتقدونها المسلمون ، والتي قررها الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسانيد الصحيحة بياناً لنص كتاب الله عز وجل ، فإن الجمع عليه أن الله تعالى يأذن لنبيه صلى الله عليه وسلم في الشفاعة لمن يريد الله عز وجل العفو عنه ، فهي من الله لا تأثير للشفيع في إرادة الحق سبحانه ، وإنما يريد عز شأنه إظهار كرامة الرسول عنده ، وهذه هي الشفاعة عند الموحدون لا شفاعة المشركين .

أما التوسل فهو توسل بمحبتنا للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه محبوب الله ، ومحبتك للرسول فرض وهي من عملك الصالح ، والتوسل إلى الله بالعمل الصالح في كتاب الله ، قال تعالى : (**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**)^(٧٩) ، والحب في الله من أوثق عرى الإيمان فأى شئ في ذلك ؟ وحبنا للنبي صلى الله عليه وسلم مستمر في حياته وبعد وفاته .

وليس من مقصدى هنا أن أتبع كل ما أخطأ فيه المستشرقون ومن قلدتهم ، ولم يفرق القوم بين أقوال الصوفية في حالة وجد يعذرهم فيها العلماء وبين ما قالوه في حال الكمال ، وليس ما غلط فيه الناس عليهم بمضيرهم شيئاً ، (**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**)^(٨٠) .

٧٩ - سورة المائدة ، الآية ٣٥ .

٨٠ - سورة الحج ، الآية ٣٨ .

غاية الصوفى

قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(٨١) ، وفرق بين مقام الحب ومقام المحبوب ، قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(٨٢) ، وقد انقضت النبوة فلا مطمع لأحد فى مرتبتها ، كما أن فضل صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدرك ، والصحابى من اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً ومات على إسلامه .

ومنتهى ما يصل إليه الأولياء الاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم فى اليقظة ، كما ذكره محققوا أهل الشهود ، وارجع إلى ما ذكره الحافظ ابن أبى جمرة فى شرحه على مختصر صحيح البخارى ، وغيره من السادة الصوفية ، وهذا الاجتماع هو بداية أمر الصحابى ، فنهاية الأولياء بداية الصحابة رضوان الله عليهم ، وحكم رؤية النوم حكم رؤية اليقظة لا بد من عرضها على الشرع الشريف ، فما قبله قبلناه وما رده فلا نأخذ به ، وقد اعترض باعتراضات كلها مردود ، وهى حال روحية غير اليقظة المعهودة ، فمنتهى ما تصبو إليه آمال العارفين أن يتحققوا بأكمل ما يمكن لمسلم أن يصل إليه فى مرتبتهم ، من معرفة وعمل وحال ، لا دنيا ولا كون ، فلا يكون شئ منها غاية .

قال العارف ابن عطاء الله : " مقصودك أمامك ، فدع كل شئ خلف ظهرك " ، قال تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)^(٨٣) .

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : ((إِنْ اللَّهَ قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ)) .

وفى الحديث ثلاث مراتب :

٨١ — سورة آل عمران ، الآية ٣١ .
٨٢ — سورة المائدة ، الآية ٥٤ .
٨٣ — سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

١ - من قام بالفرائض علماً وعملاً ، ظاهراً وباطناً .

٢ - من تقرب إلى الله بالنوافل بعد قيامه بالفرائض ، ولما يبلغ به ذلك إلى مقام المحبوبة .

٣ - من بلغ به التقرب بالنوافل إلى مقام المحبوبة عند الحق تبارك وتعالى ، وهذه هي أعلى المراتب وأشرف المنازل ، ((كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ)) ، ولم يقل سبحانه كنت عينيه ولا أذنيه لأن الأمر لا يدخل في نطاق المحسوسات .

وسواء فهمنا في ذلك أن الحق عز وجل تولى شأنه فأسمعه ما لا يستطيع أن يسمع بأذنه ، وأن يريه ما لا يستطيع أن يبلغه بصره... إلخ ، أو أن الحق عز وجل حفظ سمعه وبصره فأحاطه برعايته الخاصة ، أو أنه سبحانه أنسى العبد نفسه وأشغله بذاته العلية فأصبح لا يسمع ولا يبصر ولا يحس إلا بربه عز وجل .

أما حلول الحق في عبده فهو أمر بعيد عن التفكير الإسلامي ، وليس ثمة ريب في أن معتقده ليس من المسلمين وهو مخالف لما جاءت به الرسل من تنزيه الحق عز شأنه ، مخالف للعقل ، فليس في قضايا العقول الصحيحة أن يحل غير المحدود في المحدود .

وإن سألتني لأعطينه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله - لو جاز على التردد في صنع أمر - وهذا تنزل في تصوير مبلغ عناية الله بمسارعتة في إرضاء من أنعم عليه بالمحبوبة .

قال صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ)) ، ربط الله على قلوبهم حتى فنيت إرادتهم في إرادته تبارك وتعالى ، وغمرهم بالنور حتى استشفوا الحقيقة من وراء أستارها ، فلا تتوجه قلوبهم إلا إلى ما مضت به الإرادة الأزلية .

شاركوا الناس في علومهم واختصهم الله بالعلم الخاص ، قال سيدنا الخليل عليه السلام : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّئُ الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)^(٨٤) ، فالإيمان بالغيب إيمان حيث يقطع عروق الشك ، ولكن هناك ما هو أسمى من ذلك أن تضم إليه الشهود ، فيجتمع لصاحبه الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة ، فمن آمن بالملائكة ولم يرها فهو مؤمن ، ومن آمن بالملائكة ورآها فقد جمع الإيمانين .

٨٤ - سورة البقرة ، الآية ٢٦٠ .

كنت سمعه ، كنت بصره ... إلخ ، فأى ستار وأى حجاب ، ولئن بلغ قوم اليقين من طريق بحث عقلى أو سمعى ، فأهل المحبوبة الخاصة قد اجتباهم رب الدليل حتى أحلهم فى عين اليقين ، اليقين العلمى عقلاً وسمعاً ، واليقين الشهودى ، (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)^(٨٥) ، وقد كان من الموقنين علم يقين ، فسمما إلى اليقين علم يقين وعين يقين .

والعلماء ورثة الأنبياء فى كل ما لم يكن من خصائص النبوة ، أرأيت من غشيه نور الشمس حتى عجز بصره عن تحمل أنوارها الساطعة ، ولفح وجهه وهج حرارتها المتأججة ، أنظنه يلتمس على الشمس دليلاً ؟ أرأيت من قرع سمعه قرع المدافع فكاد يصم أذنه ، أيسأل الناس عنها ؟ بل من ألقى بجسده فى النار ، أترأه يدور بخلده ما يشبه الريب فى وجود النار ؟ ذلك حال أهل اليقين الشهودى ، مازج اليقين حقائقهم حتى صاروا هم اليقين ، وليس الخبر كالمعانية .

ذلك هو الوصول إلى الحق ، أزال الله من العبد صفاته الذميمة وطهره منها ، ثم أنعم عليه وجمله بصفات الكمال بما يناسب مرتبة الخلق ، وأشغله به عن كل ما سواه ، فهو مستغرق فى حبه بالله سبحانه لا به .

هؤلاء هم السادة الصوفية ، فمن لم يكن كذلك فليس بالصوفى ، وكم انتسب إلى القوم من ليس منهم ، فعلى من يعنى به أن يبحث له عن اسم يليق به .

وليس على من تحقق بمقام المحبوبة جناح أن يكون أميراً أو فقيراً ، وليس فى الصوفية كناز ، وقد يكون فيهم من تظهر عليه سمات الثراء فهو يأخذ ما يأخذ عن الله وينفقه بالله لله ، فإن كان فقيراً فهو الفقير الصابر ، وإن كان غنياً فهو الغنى الشاكر .

الغاية القصوى فى العلم ، هذه مرتبتهم فى الإيمان ، فى المعرفة ، وهل وقفوا دون مرتبة يصح أن يدركوها من مراتب العلم ؟ وعلى هذا الأساس عملهم ، حفوا بالرعاية فعملوا على بينة من ربهم ، فمن عليهم فرزقهم انتهى الإخلاص فى العمل ، وتصور أى حال ينتج عن هذا العلم وهذا العمل ، وإذا فقد جمع الله لهم صفاء العلم ، وصفاء العمل ، وصفاء الحال .

٨٥ - سورة الأنعام ، الآية ٧٥ .

((كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّه ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّه)) ، ذلك شأن المحبوبة ، منحوا النعمة العظمى - رضوان الله الأكبر - (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)^(٨٦) .

وسيلة الصوفى

أما وسيلتهم رضى الله عنهم فهي التحقق الكامل فى أعلى منزلة - ظاهراً وباطناً - بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتخلى عن كل ما يقطع عن الوصول إلى الحق عز شأنه ، أو يبطئ بالسالك فى السير ، ثم الانتقال إلى التحلية وهى التخلق بما اختاره الله لأصفيائه من المحاسن المحبوبة له سبحانه وتعالى ، وقد قال سبحانه وتعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)^(٨٧) ، السبيل - الطريق - فيفتح له ما شاء من سبله الموصلة إليه عز شأنه .

روى الخطيب فى تاريخه عن جابر رضى الله عنه : قدم النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة فقال عليه الصلاة والسلام : ((قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : مجاهدة العبد هواه)) .

ولنذكر مصادر تخلقهم وتحققهم من كتاب الله عز وجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : (الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)^(٨٨) .

(لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ وَعَاهَدُوا إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)^(٨٩) ، (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)^(٩٠) ، (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٩١) ، (أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)^(٩٢) ، وفى سورة الحج

٨٧ - سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

٨٨ - سورة البقرة ، الآيات ١ - ٤ .

٨٩ - سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

٩٠ - سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

٩١ - سورة البقرة ، الآية ١١٢ .

٩٢ - سورة البقرة ، الآية ١٢٥ .

(وَالْقَائِمِينَ) (٩٣) .

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (٩٤) ، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) (٩٥) ، (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ) (٩٦) ، (مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) (٩٧) .

(الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٩٨) .

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (٩٩) ، (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ) (١٠٠) .

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيُذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (١٠١) ، (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) (١٠٢) .

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُجُوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) (١٠٣) ، (إِلَّا

٩٣ — سورة الحج ، الآية ٢٦ .

٩٤ — سورة البقرة الآية ١٥١ .

٩٥ — سورة البقرة ، الآية ٢٠٧ .

٩٦ — سورة آل عمران ، الآية ١٧ .

٩٧ — سورة آل عمران ، الآيات ١١٣ ، ١١٤ .

٩٨ — سورة آل عمران ، الآيات ١٣٤ ، ١٣٥ .

٩٩ — سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

١٠٠ — سورة النساء ، الآية ٣٤ .

١٠١ — سورة النساء ، الآية ٣٦ .

١٠٢ — سورة النساء ، الآية ٨٦ .

١٠٣ — سورة النساء ، الآية ١١٤ .

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) .

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (١٠٥) ، (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١٠٦) ، (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) (١٠٧) .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (١٠٨) ، (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (١٠٩) ، (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْعَافِينَ) (١١٠) ، (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (١١١) ، (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ) (١١٢) .

(الثَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (١١٣) .

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) (١١٤) .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (١١٥) .

١٠٤ - سورة النساء ، الآية ١٤٦ .

١٠٥ - سورة الأعراف ، الآية ١٥٩ .

١٠٦ - سورة الأعراف ، الآية ١٦٤ .

١٠٧ - سورة الأعراف ، الآيات ١٩٩ ، ٢٠٠ .

١٠٨ - سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

١٠٩ - سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ .

١١٠ - سورة الأعراف ، الآية ٢٠٥ .

١١١ - سورة الأنفال ، الآية ٧٢ .

١١٢ - سورة التوبة ، الآية ٩٩ .

١١٣ - سورة التوبة ، الآية ١١٢ .

١١٤ - سورة الرعد ، الآيات ٢٠ - ٢٢ .

١١٥ - سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)^(١١٦) .

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)^(١١٧) ، (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)^(١١٨) .

(الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)^(١١٩) ، (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ)^(١٢٠) .

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا سُومًا وَعُمِيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)^(١٢١) .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)^(١٢٢) ، (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)^(١٢٣) .

١١٦ - سورة المؤمنون ، الآيات ١ - ٥ .

١١٧ - سورة المؤمنون ، الآيات ٨ ، ٩ .

١١٨ - سورة المؤمنون ، الآيات ٥٧ - ٦١ .

١١٩ - سورة الفرقان ، الآيات ٦٣ ، ٦٥ .

١٢٠ - سورة الفرقان ، الآيات ٦٧ ، ٦٨ .

١٢١ - سورة الفرقان ، الآيات ٧٢ ، ٧٤ .

١٢٢ - سورة لقمان ، الآية ١٢ .

١٢٣ - سورة الأحزاب ، الآية ٣٥ .

(قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى) (١٢٤) .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) (١٢٥) .

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) (١٢٦) .

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا) (١٢٧) .

ولا نعرف فى الوجود كله من الناس من همه التحقق بما تدعو إليه آيات الكتاب العزيز على أساس التوحيد الخالص من شوائب الشرك - جليه وخفيه - على أكمل وجه غير هؤلاء القوم .
وحيث قد وضع أن اعتقادهم ، وغايتهم ، ووسيلتهم أعلى ما يدعو إليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والبون شاسع بين اعتقادهم واعتقاد الهندوس والنصارى وغيرهم .
وغايتهم غير غاية الهندوس أو غيرهم ، ووسيلتهم هى نفس الكتاب والسنة ، لا هندوس ولا غير هندوس ، ولا عمل عندهم إلا ما وزن بالشريعة المطهرة .

قال الجنيد رضى الله عنه : " إن مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة " ، فلا يقول بعد هذا أن الصوفية أخذوا عن غير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خادع لنفسه أو مخدوع .
ويحسن أن نذكر منازل الفرار إلى الله من الكون وما فيه ، نسأله سبحانه الوصول .
اللهم يا دليل الحيارى دلنا عليك ، اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك .

١٢٤ - سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

١٢٥ - سورة الذاريات ، الآيات ١٥ - ٢٢ .

١٢٦ - سورة المعارج ، الآيات ٢٦ - ٣٣ .

١٢٧ - سورة الإنسان ، الآيات ٧ - ٩ .

منازل السير إلى الحق عز شأنه

السفر إلى الحق عز شأنه هو حقيقة التزكية ، وهو المقصود فى صحبة الصالحين والأخذ عنهم ، وهو صلب طريق السادة الصوفية رضوان الله عليهم .

وإن تدرج السالك من رتبة ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ)) فى منازل ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)) هو بداية الدخول فى طريق الغربة - وطلب الحق غربة - والتحقق بآية : (إني ذاهب إلى ربي سيهدين)^(١٢٨) ، حتى يصل إلى مقام المحبوبة (إن معي ربي سيهدين)^(١٢٩) ، (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)^(١٣٠) ، ومن ذا عساه يدرى متى الوصول ؟ وليس للحق مكان فيسير إليه العبد بجسده ، فإن وجوده سبحانه متقدم تقدماً ذاتياً على كل شئ ، (الله خالق كل شئ)^(١٣١) المكان والأكوان .

وقد أجمع العلماء فى قوله تعالى فى الحديث القدسى : ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنِ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنِ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنِ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنِ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)) رواه الشيخان ، على أن هذا التقرب لا يكون بالصعود إلى المرتفعات ، وأن من ظن أنه تقرب جسماني فقد ضل سواء السبيل .

وإن قرب الحق لا يشبه قرب المخلوق من المخلوق ، وهو من العبد قرب معنوى بالتخلى عن الصفات الذميمة والتخلى بالصفات الكريمة .

وقرب الحق بإفاضة رحمته الخاصة عليه ، وطى منازل السير له ، فما كان يقطعه منها فى قرون يقربه الحق له فى ساعة أو ساعات .

وهذا الحديث القدسى الشريف موطن إجماع بين السلف والخلف ، وهو مفتاح لفقه ما يشبهه من الأحاديث التى يذكر فيها المجئ والنزول والارتفاع ونحو ذلك .

١٢٨ - سورة الصافات ، الآية ٩٩ .

١٢٩ - سورة الشعراء ، الآية ٦٢ .

١٣٠ - سورة الأعراف ، الآية ٤٣ .

١٣١ - سورة الزمر ، الآية ٦٢ .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))
وقال عز شأنه : (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)^(١٣٢) ، وكلما ازداد العبد كمالاً فقد اقترب ممن لا كمال إلا كماله
الذاتى المطلق .

ونهاية الوصول التحقق بكمال المرتبة ، ولما كان الممكن عبداً لله فكماله كمال عبوديته لمولاه وهى
أعلى مرتبة فى شكر المنعم سبحانه ، (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)^(١٣٣) .

وقد قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ يَٰوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ)^(١٣٤) ، مثنى إن وجدت من
يعينك فى طريق السير إلى ربك عز شأنه ، فإن لم تجد فسر إلى الله فرداً فإن مولاك لا يضيعك .
وما أحسن أن يكون الرفيق عارفاً بالطريق .

١٣٢ - سورة العلق ، الآية ١٩ .
١٣٣ - سورة سبأ ، الآية ١٣ .
١٣٤ - سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

١ - التوبة

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا)^(١٣٥) ، (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)^(١٣٦) .

التوبة : الرجوع إلى الله عز وجل بطاعته ، فإن العاصي بمنزلة العبد الأبق من سيده ، وهى أول منزلة فى طريق المولى سبحانه ، وهى أساس ما بعدها من المقامات ، ولا تصح للعبد من غيرها إرادة وتحقق للسالك بترك المعاصى الظاهرة والباطنة كبيرها وصغيرها ، وأن يتركها لله سبحانه لا قهراً ولا لعلة .

فمن كان مصراً على معصية كلص لا يمنعه من السرقة إلا السجن ، فهو لص مازال حيث لم يتطهر قلبه من الظلمة ومازالت روحه روح شر .

ومن تمنى زوال نعمة أخيه فتلك إذية العاجز وهى ظلمة فى القلب ، وهذا هو الحسد آية الكبر والاعتراض على البارئ سبحانه ، وهو أصل الفساد ، وهو سبب طرد إبليس من دار الكرامة .

ومقدمة التوبة : اليقظة ، وهى نور يقذفه الله فى قلب من شاء من عباده ، فيتبته من موت القطيعة عن مولاه الرحمن الذى أنعم عليه بما لا يحصى من النعم ، فقابل نعم سيده باستخدامها فى محاربتة بسلوك مساخطه وفقدان الحياء منه وهو تحت سمعه وبصره .

فإذا انتبه أدرك قدر جنايته على نفسه وسوء أدبه مع ربه فيشرع فى تغيير حاله ، وأول ذلك خلع العادة والابتعاد عن كل ما يجبر إلى المعصية من مكان وصحبة ، وتربية نفسه فى الطاعة وتزكيتها بقدر الاستطاعة فلا يحملها على ما يشق عليها ، ((فَإِنَّ الْمُنْتَبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى)) .

فالتائب : عبد تخلى عن معصية مولاه وأبغضها ، (وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)^(١٣٧) ، وندم على ما فات ، وعزم عزمًا جازماً على أن لا يعود إلى معصية أبداً ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، واستحل ممن لم يستطع رد الحق إليه .

١٣٥ - سورة التحريم ، الآية ٨ .

١٣٦ - سورة الحجرات ، الآية ١١ .

١٣٧ - سورة الحجرات ، الآية ٧ .

وإن كان قد ترك شيئاً من الفرائض عمداً أو سهواً قضاها ، وقد نسى كثير من المرشدين والسالكين ذلك فانسد عليهم باب الفتح ، وترى الرجل يتنفل الساعات وقد ترك الفرائض وهى الأساس ، ومن لم يقضها فكيف تستقيم له التوبة ؟ واحذر أن تتساهل أو تشتغل بنافلة عن قضاها ، فإن من قضاها كان له ثواب النافلة مع الفرائض مادام لم يمنعه عن النافلة إلا هى .

ثم اجتهد فى استدراك ما فاته فى زمن العصيان .

وكانت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها تقول : " توبتنا تحتاج لتوبة " ، ذلك لأن الفضل فيها

لله تعالى لا للتائب ، (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) (١٣٨) .

وبذلك زال عنه اسم الظلم وخرج من دائرة الظلمة ، (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ

لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (١٣٩) .

١٣٨ - سورة التوبة ، الآية ١١٨ .

١٣٩ - سورة الأحزاب ، الآية ٤٣ .

٢ - الاستقامة

(فَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)^(١٤٠) ، (فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ)^(١٤١) ،

الاستقامة : السير فى وسط الجادة ، الاعتدال فى الأقوال والأفعال والأحوال .

فإذا منَّ الله على العبد بالتوبة فقد نقله إلى النور ، فأصبح فى حصن القداسة الربانية ، وهو إذ ذاك مطالب بقوله تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)^(١٤٢) ، فمن جاور الحد ولم يجاوزه فما خرج عن مقام التوبة .

وفى مقام الاستقامة مطالب بقوله تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا)^(١٤٣) ، فلا بد أن يجعل بينه وبين الحرام قدراً يبتعد به عن الحد حتى لا يقربه .

فالمعصية بالنسبة لمقام التوبة ارتكاب المعصية ، وفى مقام الاستقامة المعصية القرب من المعصية ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن ذلك خلافات الفقه التى للمخالف فيها دليل قوى .

ولما كانت المعاصى منها الإفراط والتفريط وكان وسطها هو الوصف المحمود - فالكرم وسط بين الإسراف والبخل - كان الميل عن الحد الأوسط قرباً من المعصية ، الإفراط أو التفريط .

ولا يضير فى مقام التوبة ملاحظة الجزاء ، أما فى مقام الاستقامة فلا يكون همه الجزاء ، وملازمة السبيل الوسط هو الاستقامة وفيها تتعادل جميع خصال الخير فى النفس ، ففيها الصبر والشكر والتوكل والرضا والقصد والشجاعة والمروءة وجميع الفضائل ومكارم الأخلاق .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)^(١٤٤) .

١٤٠ - سورة هود ، الآية ١١٢ .

١٤١ - سورة غافر ، الآية ٧ .

١٤٢ - سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .

١٤٣ - سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .

١٤٤ - سورة فصلت ، الآية ٣٠ .

٣ - التقوى

قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(١٤٥)
وقال تعالى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)^(١٤٦) .

وهى وقاية النفس من عذاب الله وغضبه ، ومن النقص ، وإجلال الحق للحق .

وأصلها : وقى يقى ، (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)^(١٤٧) ، توقي السهم واتقاه .

والتقوى رعاية الحق للحق مع الغيبة عن الجزاء ، وهى مراتب أدناها اتقاء الشرك ، وأعلها التنزه عما يشغل السر عن الحق عز شأنه .

وعنه صلى الله عليه وسلم : ((لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس)) رواه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى .

وقد علمت أن ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس هو تحقيق مقام الاستقامة ، ومنه يرتقى إلى مقام التقوى .

وفى مقام التوبة يخشى العبد العقوبة الحسية بالمصائب والنار ، أو المعنوية بعدم الرضا .

وفى مقام الاستقامة يخشى النقص فى القيام بما يليق بالربوبية على أكمل الوجوه .

وفى مقام التقوى يخشى الله عز وجل إجلالاً لذاته ، بحيث إذا أمن من العذاب والغضب وقيل له :

افعل ما شئت فقد غفرت لك ، فإنه لا يأتى إلا محاب الله ومراضيه ، ولا يزال حياؤه من الحق محيطاً

به ، قال صلى الله عليه وسلم : ((دعه فإن الحياء خيرٌ كُلُّهُ)) ، وإجلاله للحق هو إجلاله ، ولعل

هذا - والله أعلم - هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى أهل بدر : ((إِنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ

فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) ، فحياؤهم وإجلالهم للحق حاجز بينهم وبين المخالفة ،

ومقامهم رعاية حرمة الذات لذاتها ، فإنه سبحانه حقيق أن يطاع فلا يعصى ، لذاته لا لعقابه .

١٤٥ - سورة يونس ، الآيات ٦٢ ، ٦٣ .

١٤٦ - سورة المائدة ، الآية ٢٧ .

١٤٧ - سورة التحريم ، الآية ٦ .

وفى التقوى الاعتصام بالله ، وهو أن تكون تقواك لله بالله لا بنفسك ، وهذا هو اللائق بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

أما خلاف الصحابة رضوان الله عليهم فقد جاء ما معناه : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

وروى عن عمر عنه صلى الله عليه وسلم فى سالم مولى أبى حذيفة : ((لو لم يخف الله ما عصاه))
أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن الأرقم ومعناه أنه مهما أمن لا يرتكب مخالفة حياء من ربه سبحانه وتعالى .

فالخوف الذاتى - الهيبة الذاتية - إجلال الحق لذاته سبحانه هو منزلة المتقين ، قال تعالى : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)^(١٤٨) .

٤ - الإخلاص ، مقام الفرقان

قال تعالى : (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)^(١٤٩) ، (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١٥٠) ، (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)^(١٥١) .

الإخلاص : تمحيص الوجهة لله .

ولو لم يخلق الله ناراً فمن الناس من تتغير عبادته ومنهم من لا تتغير ، ولو لم يخلق الله جنة كذلك . وهب أنه سبحانه قضى لقوم بالنار مهما عملوا وكشف لهم عن ذلك يقيناً - كخبر معصوم - وكذلك إذا قضى الله لقوم بالجنة ، فمنهم من تتغير عبادته ومنهم من لا تتغير ، قال صلى الله عليه وسلم : ((أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)) ، وهؤلاء الذين لا تتغير عبادتهم هم الذين عبدوا الله . فمهما مر عليك من قول الصوفية رضوان الله عليهم أنهم لا ينظرون إلى الجنة أو النار كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها :

الكل يعبدوك من خوف نار يرون النجاة حظاً جزيلاً

فليس مرادهم احتقار عقاب الله أو ثوابه - فحاشاهم من ذلك - وهم أعلى الناس أدباً مع الله تبارك وتعالى ، وهو سبحانه الذى رزقهم الأدب ، وإنما مرادهم إخلاص العبودية لربهم . فإذا من الله على من هذه عبادته ، فغيبهم به سبحانه عن شهود عملهم ، فهؤلاء هم المخلصون . ففى مقام التقوى الغيبة عن الجزاء ، وفى مقام الإخلاص الغيبة عن العمل وشهود الإخلاص . وقال عز شانه : (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)^(١٥٢) ، والفرقان نور كاشف يفرق به الحق والباطل فى الملتبسات ، وتحل به خفايا المشكلات إدراكاً وتعبيراً .

قال تعالى : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)^(١٥٣) .

١٤٩ - سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

١٥٠ - سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

١٥١ - سورة الزمر ، الآية ٣ .

١٥٢ - سورة الأنفال ، الآية ٢٩ .

١٥٣ - سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

والحكمة : إصابة الوجه الحق - فى ذاته وسره ونفعه وغايته - فى المعرفة مهما دق إدراكها ، وفى التعبير الموصل للمقصود من حيث المعنى ومن حيث القلب الذى يصاغ فيه .

وقال عز شأنه : (وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)^(١٥٤) ، (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)^(١٥٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)) ، وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ ثُمَّ يَغْضُ بِبَصَرِهِ إِلَّا أَخَذَتْ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا فِي قَلْبِهِ)) رواه أحمد والطبرانى ، والبيهقى وقال : إنما أراد - إن صح والله أعلم - أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعاً ، وتلك العبادة نور من عند الحق .

والإخلاص بداية الفيض الخاص وذوق حلاوة القرب ، ولا يزال ينمو فيتركز فى الصدق فيوصل إلى اليقين .

قال تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)^(١٥٦) ، وهو سبحانه الذى رزقهم الإخلاص فخلصهم وخلص أعمالهم .
وقال عز شأنه : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(١٥٧) ، وهو بصر القلب لا بصر العين ، هذا مقام التقوى .

وفى مقام الإخلاص هم مبصرون دائماً ركبت لهم عيون جديدة ، فإن جاءهم الشيطان - مهما تلون وتخفى فى احتياله - فهم بالنور الكاشف الذى منحوه عرفوه وعرفوا احتياله ، ((لَوْ لَقِيكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًا لَسَلَّكَ فَجًا غَيْرَ فَجِّكَ)) .

ويروى أن سيدنا علياً كرم الله وجهه بارز رجلاً خرج من صفوف المشركين ونكل بالمسلمين وقتل منهم عدداً ، فتقاتلا حتى تكسرت سيوفهما ورماحهما ، فتصارعا فصرعه سيدنا على وسل خنجره للإجهاد عليه ، فبصق الرجل فى وجهه فقام عنه وتركه ، فسأله كيف يتركه وما تمكن منه إلا بعد

١٥٤ - سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

١٥٥ - سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

١٥٦ - سورة النساء ، الآية ١٤٦ .

١٥٧ - سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

جهد ، فيروى أنه قال رضى الله عنه : " خشيت أن يخالطنى فى غضبى لله غضب لنفسى فأهلك " ،
فأسلم الرجل ، يخالطه من غير شعور منه ، والله أعلم بصحة الرواية وإنما ذكرتها للعبرة .
والمخلص لا يرى لنفسه عملاً ولا إخلاصاً ، ومقامه شهود المنة ، ويرجو الفضل من الحق ابتداء
بلا استحقاق لعمل ، لأنه عند نفسه ما عمل .

(وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)^(١٥٨) ، (قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ
رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)^(١٥٩) .

١٥٨ - سورة النور ، الآية ٢١ .
١٥٩ - سورة البقرة ، الآية ١٣٩ .

٥ - الصدق

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)^(١٦٠) ، (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)^(١٦١) .

الصدق : بلوغ الغاية عزمًا وحزمًا فى التحقق بالكمالات .

وفى مقام الاستقامة تتعادل جميع خصال الخير فى النفس .

وفى مقام الصدق تبلغ الذروة مع تعادها .

ومن الناس من يكون حبه هادئاً خلواً من الشوق المزعج والوجد المحرق ، ومنهم من ازداد به

الحب فكان حاله شبيهة بحال الظمان أجهدته الظما بالنسبة للماء .

والجائع اشتد به الجوع بالنسبة للطعام ، استولى عليه الحب الثائر الذى اشتعلت ناره وتأجج أواره

فلا راحة له ولا سكون ولا صبر ولا تصبر ، وكلما مد بالسعة فى احتمال الحب ازداد حباً فحاله فى

الوجد حاله ، يجب مولاه لنعمه عليه ، ويجب لأنه الجواد المنعم الوهاب ، ويجب لأنه هو وحده الذى

له الكمال الذاتى السامى الذى لا يتصور أن يدانى .

ولو فرض أنه غاب عن شهود نعمه عليه وغاب عن أوصاف الحق المتعلقة بالوجود ، وإنما تركز

نظره إلى كمالاته الذاتية من حيث كونه ذاتى الوجود مقدساً عن النقص ، أزلياً أبدياً

لا تدركه العقول ولا الأبصار ، له الكمال كله من حيث ذاته ، فذلك مناط حبه لربه تبارك وتعالى

الحب القاهر الجارف ، حيث يكون اضطرابه فى شوقه إلى محبوبه كاضطرار الغريق إلى النجاة ، ويجب

لأجله كل ما هو منه سبحانه ، فنعمته رحمته وفضله ، وقالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها :

أحبك حين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

وهو مقام يكون فيه غريق الحب مغلولاً مسيراً إلى الحق مع كمال عقله ، وحبه وأخلاقه فيه سجية

بريئة من التكلف .

١٦٠ - سورة التوبة ، الآية ١١٩ .

١٦١ - سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

والمحب الصادق لا يزعزعه امتحان ، والبلاء يكون بالخير كما يكون بالشر ، ولا تطغيه رغبة ولا تعوقه رهبة ، ولا تزيده الفتنة إلا ثباتاً ، فصبره هو الصبر وشكره هو الشكر ، (يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)^(١٦٢) ، جرفه الحب فكله حب ، سُر به من الإخلاص إلى صدق المحبة وفيها صدق الرجاء وصدق الخوف وصدق الصبر وصدق الشكر والصدق في كل خلق حميد .

وليس المراد صدق اللسان فقد مضى وهو من مستلزمات مقام التوبة وإنما المراد هنا صدق الحال وفي الحديث : ((اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَسَمْعِي وَبَصْرِي وَأَهْلِي وَمَالِي وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ)) ، ومن أحب الله أحب في الله الله .

ويندرج في حب الله حب أحبائه فيه بقدر قربهم منه سبحانه ، حبهم له لأنه يحبهم ، قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(١٦٣) ، وفي الحديث القدسي : ((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِي)) .

والحب أبرز الصفات في مقام الصدق وعليه مداره ، قال تعالى : (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)^(١٦٤) ، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)^(١٦٥) .

١٦٢ - سورة إبراهيم ، الآية ٢٧ .
١٦٣ - سورة المائدة ، الآية ٥٤ .
١٦٤ - سورة الأحزاب ، الآية ٢٤ .
١٦٥ - سورة الحجرات ، الآية ١٥ .

٦ - اليقين

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)^(١٦٦) .

واليقين : العلم بالحقيقة علماً جازماً بالدليل القطعى .

والجزم : حسم عروق الشك وانعدام الاحتمال .

والدليل : عقل وشرع ، والإلهام المطابق لهما البالغ مبلغ اليقين ، والشهود الحق .

وعلم اليقين : الإدراك الجازم للحقيقة من وراء حجاب .

وعين اليقين : إدراك الحقيقة بلا حجاب ، قال تعالى : (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ

الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)^(١٦٧) .

ولا يعتبر الإيمان إيماناً إلا إذا كان يقيناً مع الانقياد ، قال تعالى فى قوم من الكافرين : (وَجَحَدُوا

بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)^(١٦٨) ، فما أفادوا من يقينهم لعدم انقيادهم للرسول صلى الله عليه وسلم .

اليقين الاعتقادى واليقين الذوقى : يقين المؤمن بإطلاع ربه عليه أمر لاشك فيه عنده ، ومع ذلك

فقد يغيب عن ملاحظة شهود ربه له فيقع فى المخالفة ، وليس هذا لعدم اليقين بإطلاع الحق عليه

ولكنه فى تلك الحال محتجب غائب ليس بمستحضر ، فهو محروم من اليقين الحضورى مع الحق

سبحانه ، فالأول اليقين الاعتقادى والثانى هو اليقين الذوقى .

وقد قال تعالى : (لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ)^(١٦٩) ، فلا يزال نور الإيمان يزداد فى قلوب المؤمنين -

بفضل الحق - حتى يعطوا نور الفرقان ، نور التمييز الذى يميز به الحق فى علمه وعمله وكل ما يرد

عليه فى الباطن والظاهر ، وتلك بداية الفيوضات - المنح الخاصة - منح الأسرار .

ثم يترقى ذلك الفيض القدسى حتى يستولى عليه الحب القاهر الصادق ، ولا يزال الفيض الأقدس

يرقى بالعبد حتى يُرزق ثلج اليقين ، لا خيال ولا وهم - طمأنينة القلب وراحة السر - حتى كأنه

يشاهد الأمر عياناً ، وهذا هو الذى يدعى باليقين الحضورى واليقين الذوقى إشارة إلى الحديث :

١٦٦ - سورة السجدة ، الآية ٢٤ .

١٦٧ - سورة التكاثر ، الآيات ٥ - ٧ .

١٦٨ - سورة النمل ، الآية ١٤ .

١٦٩ - سورة الفتح ، الآية ٤ .

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَيُحَمَّدٌ رَسُولًا)) ، والحديث : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ)) وقال النووي : قال القاضي : هذا الحديث بمعنى الحديث المتقدم ((ذاق طعم الإيمان... إلخ الحديث)) .

وقد يكون المؤمن مؤمناً ولما يذوق حلاوة الإيمان ، ثم يمن عليه فيزيده إيماناً فيذوق حلاوته يقيناً ، اليقين الذوقى لأنه يتربى له ذوق خاص فى قلبه يطابق الدليل وإن لم يطلع على الدليل ، فيقوم له ذلك مقام حاسة سادسة ، فيدرك الحق فى الأمور بمجرد عرضها عليه كما يميز اللسان الصحيح مختلف الطعوم لا يحتاج دليلاً على حلوها ومرها ، قال صلى الله عليه وسلم : ((اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوَكَ)) .

وكما أن الشمس إذا أشرقت تحت الظلمة ، فذاك النور الذى بدأ فى مقام الفرقان وارتقى إلى الصدق ، فالإيقان إذا حل قلباً فلا سبيل إليه لظلمة ، (أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (١٧٠) .

وعن الحارث بن مالك أنه مر بالنبى صلى الله عليه وسلم فقال : ((كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : فانظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر عرش ربي بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارثة عرفت فالزم)) أخرجه الطبرانى فى الكبير ، والبزار عن أنس وزاد فى آخره : ((مؤمن نور الله قلبه)) ، قال عامر بن عبد قيس : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

وقال الحق تعالى : (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (١٧١) .

١٧٠ - سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

١٧١ - سورة الجاثية ، الآيات ٣ ، ٤ .

٧ - المراقبة

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (١٧٢) ، (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) (١٧٣) .

المراقبة : دوام استشعار القلب نظر الحق إليه مع هبة الجلال وإسقاط الوهم ، دوام الحضور مع الحق مع التعظيم والتنزيه .

ونور الفيض الفرقاني إذا بلغ اليقين الذوقي الحضورى استولى على القلب وقهره فأفضى إلى دوام المراقبة ، ورب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب ، كالعلم بالموت فإنه يقين وأكثر الناس عنه غافلون .

فالمراد عندهم بالمراقبة ذلك الحال من الاستيلاء إذا دام فصار مقاماً ، فيصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال ، منكسراً تحت الهيبة ، مستمتعاً بأنوار الجمال ، فرحاً بالقرب ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد .

فيشهد المراقب ربه قبل العمل فيعلم رضاه عنه ، وعند العمل بمنة الله عليه فيه ، وبعد العمل بحمد الله مع يقينه بأن حمده منه سبحانه .

وقيل لحاتم الأصم : " علام بنيت أمرك ؟ فقال : على أربع خصال : علمت أن لى رزقاً لا يأكله غيرى فاطمأنت نفسى ، وعلمت أن لى عملاً لا يعمله غيرى فشغلت نفسى به ، وعلمت أن لى أجلاً لا أدرى متى هو فأنا مبادره ، وعلمت أن لى رباً وعلى حقه ولا يعبد لى ربى غيرى ، ولا أغيب عن الله فأنا أستحيى منه أبداً وأراقبه دائماً " .

وقال بعض العارفين : " القصد إليه تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعضاء فى الأعمال " .
ومن كلام يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : " لم يتقدم القوم عند الله بفقر ولا غنى ولكن بالعلم والمعرفة ، قيل له : وما عبادة العارف ؟ قال : الدنيا دار سير إلى الله تعالى ، فإن لم يسر بأعمال جوارحه فهو سائر بقلبه ، خطو القدم ذراع وخطو القلب ألف فرسخ " انتهى ، لأن أعمال الجوارح

١٧٢ - سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

١٧٣ - سورة البقرة ، الآية ٢٣٥ .

مصدرها القلب ، ومن راقب الله تعالى فى خواطره عصم فى جوارحه فإن الأعضاء تابعة للقلب ، كالمملك وجنوده .

وإذا كانت المعصية فى مقام التوبة فعل الحرام ، وفى مقام الاستقامة القرب منه لا فعله ، فهى بالنسبة لمقام المراقبة الغفلة عن الحق سبحانه ، والمعصية فى كل مقام بما يناسبه ، حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ولما كانت النبوة فوق مقامات الولاية جميعها فتصور كيف يكون بعد الأنبياء عليهم السلام عن معاصى مقام التوبة وهى ترك الواجب ، فكل ما جاء عنهم عليهم السلام يستحيل أن يكون معصية بهذا المعنى ، فذلك شئ لا يعقل ممن هم المثل الأعلى للأدب الربانى ، ومعروف أن الأمر منه ما هو للوجوب ومنه ما هو للندب ، وإنما اعتبر فعل خلاف الأولى فى مقامهم السامى معصية لعلو مرتبتهم فهى معصية نسبية لسمو مكانتهم عليهم الصلاة والسلام .

وحقيقة المراقبة : التحقق بمعية الحق ، قال عز شأنه : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)^(١٧٤) ، التحقق الذى يستولى بغيره على الحقيقة كما تقدم ، ويلزم القلب الأدب فلا يرد عليه إلا حق ولا يقع فى خياله للحق صورة ولا ينسب له جهة ، فإن الجزم بنزاهة الحق سبحانه عن الجسمية آذن بانحاء جميع لوازمها من الفوقية الجسمية والقرب الجسمى والمعية الجسمية انحاء انقطع فيه الأثر .

ولا يستطيع قلبه الغفلة ، حتى لو فرض أنه أرادها لم يصل إليها ، فكيف والمقام لا يتأتى فيه أن تخطر فيه ؟ قال العارف ابن الفارض رضى الله عنه :

ولو خطرت لى فى سواك إرادة على خاطرى سهواً قضيت بردتى

أى بردته عن مقامه ، فهو غريق فى الحق بقرب الحق بلا صورة ، متعه الله سبحانه بالقرب الخاص (وَالسَّائِقُونَ السَّائِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)^(١٧٥) ، والقرب العام (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)^(١٧٦)

١٧٤ - سورة الحديد ، الآية ٤ .

١٧٥ - سورة الواقعة ١٠ ، ١١ .

١٧٦ - سورة ق ، الآية ١٦ .

٨ - المشاهدة

المكاشفة - والفناء

(سُنُرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(١٧٧) ، (إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)^(١٧٨) .
المشاهدة : شهود الحقائق بغير حجاب .

إذا تجردت الروح عن الجسد وخرجت عن نطاق المادة ثم عن نطاق لباسها البرزخي ثم لباسها الملكوتي ثم لباسها الجبروتي وعن جميع أرديتها ، فكانت روحاً مجردة عن جميع أستارها وكافحت الحقيقة بالنور الذي منحها الحق سبحانه فقد صحت لها المشاهدة ، وبدائها المكاشفة : وهي شهود الحقائق من وراء حجاب رقيق ، فإذا زال ذلك الستر زج بالعبد في عين الجمع وهو الفناء .

وليس المراد بالمكاشفة عند القوم المكاشفات الكونية مما يصح اطلاع فاسق عليه من مساتير الوجود، ويدخل في ذلك ما يراه النائم تنوياً مغناطيسياً وقراءة الأفكار وما تنقله الجن لمن يصحبونه وما يصل إليه أهل الرياضات ، وإن صح أنه يطلع السالك على ما اطلعوا عليه ولكنه لا يقف عنده . وقد أجمع القوم رضى الله عنهم على أن من كان همه كشف الغيوب الكونية والتصرف بواسطة روح أو بالهمة - ويمثل لها في المشاهدة بالعائن - فلا يعتبر سالكاً إلى الله تبارك وتعالى .

والمكاشفة الحقيقة إنما هي في مجالى الأسماء الربانية ، ومقتضاها الانكسار والافتقار إلى الله والفرح بالله والبعد عن الدعوى والانصباع الحق بمقتضى الكمالات الحقيقة .

وانظر إلى الثلج ، ظاهره ثلج وباطن الصورة الثلجية ماء وباطن الماء بخار وباطنه شئ آخر وباطنه شئ آخر .

وقلم الكاتب حركته باطنها حركة اليد وحركة اليد باطنها حركة الأعصاب وحركة الأعصاب باطنها حركة العقل ومنشؤها الروح .

١٧٧ - سورة فصلت ، الآية ٥٣ .

١٧٨ - سورة ق ، الآية ٣٧ .

معنى الاطلاع على الغيب : إذا كنا جلوساً في حجرة وفيها خزانة لم نعرف ما فيها فهو غيب بالنسبة لنا ، فإذا فتحها واحد منا ورأى ما فيها أصبح بالنسبة له شهادة ، فإذا رفع الله حجاباً عن إنسان حتى أشهده ما وراءه فقد أصبح شهادة بالنسبة له ، وإنما هو غيب بالنسبة لمن لم يشهده إياه .

و ثم غيب لا يطلع الله عليه مخلوقاً ، وهو قوله تعالى : (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) (١٧٩) .

و ثم غيب لا يطلع الله عليه إلا الرسل ، وهو قوله تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ) (١٨٠) .

و ثم غيب خاص بالأنبياء عليهم السلام .

و ثم غيب يطلع الله عليه الأولياء ، قال تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (١٨١) .

فهو شهادة بالنسبة له ، غيب بالنسبة لمن أخفاه الله عنه ، فمن ادعى أنه رأى ما أخفاه الله عنه فهو كاذب ، بخلاف من يطلعه الله على ما أخفاه عن بعض الناس فذلك جائز ، وقد يكشف الله للعبد عن أسرار في الجماد أو النبات أو الحيوان أو ما وراء المادة من الجن وبعض العوالم .

والفرق بين الفتح الذي يتمتع به أهل الحق وفتح غيرهم الدخول في الملكوت ، فإنه لا يدخله إلا من صحت عقيدته وحسن عمله .

فمن اعتقد الجسمية أو حداً في الله تعالى مثلاً فليس من أهل الحق في اعتقاده ، فإنه سبحانه منزّه عن القيود والحدود لا بداية ولا نهاية ، ومن كذب في حديثه فليس من أهل الحق في قوله ، ومن ارتكب محرماً فليس من أهل الحق في فعله ، فإنه لا يجب أن يساء إليه ، فلا يسئ إلى أحد ولا إلى نفسه .

فإذا كان العبد من أهل الحق في سائر شؤونه اعتقاداً وعلماً وعملاً وقولاً وحالاً صح أن يرفع الله عنه الحجب الملكوتية ، فيزج به في الملكوت فيكون حاله حال الملائكة ، (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

١٧٩ — سورة النمل ، الآية ٦٥ .

١٨٠ — سورة الجن ، الآيات ٢٦ ، ٢٧ .

١٨١ — سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١٨٢) ، مع الطهارة والمعرفة اليهودية والتقديس للحق سبحانه والتعظيم له وكأنما هو فى الدار الآخرة بمنزلها ، فأى يقين يكون عليه من تلك حاله ؟ وقد صح عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الشئ الكثير ، وعلى أثرهم من كان على أثرهم رضوان الله عليهم .

قال الحجة الغزالي فى كتابه " المنقذ من الضلال عن الصوفية " : " حتى إنهم وهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتهم ، ويقتبسون منهم فوائدهم ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق " انتهى .

وقال تلميذه القاضى أبو بكر بن العربى المالكى : " ورؤية الأنبياء والملائكة وسماع كلامهم ممكن للمؤمن كرامة " انتهى .

وقد اعترض قوم هذه الأمور باعتراضات مردودة بالكتاب والسنة الصحيحة ، وقد صح أنه كان فى بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، أى تكلمهم الملائكة ، انظر الصحاح ، ومنهم سيدنا عمر رضى الله عنه ، وانظر كلام الحافظ ابن حجر وغيره فى أن ذلك لا يختص به رضى الله عنه ، وهذا غير النبوة فإنها قد خُتمت بالمصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولا تزال تتسع بالعباد المحبوب دائرته الروحية بحسب الفيض الحق حتى يبلغ ما قسم الله له ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(١٨٣) ، وبدهى أن الحق لا يستشير منكبرى هذه الأحوال فى تفضله على خواص عباده ، (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)^(١٨٤) .

فمقام المكاشفة : ارتفاع الأستار غير ستر رقيق حتى كأنه يشاهد الحقيقة بلا ستار .

والفناء : هو استيلاء الحق على العبد حتى يستره به عن كل ما سواه حتى عن نفسه .

١٨٢ — سورة التحريم ، الآية ٦ .

١٨٣ — سورة الجمعة ، الآية ٤ .

١٨٤ — سورة البقرة ، الآية ١٠٥ .

وفى مقام (فَاذْكُرُونِي)^(١٨٥) يشعر العبد بذكره لربه ثم يرى أنه ما ذكر الله إلا بالله ، ثم يفنيه الحق عن نفسه وعن ذكره ، فلا يرى ذاكراً لله إلا الله فإنه ما ذكره إلا به ، ولا يرى حامداً ولا ممجداً لله إلا الله ، فإذا غيبه الحق عن تلك الرؤية كان ذكره لربه من الله لله من غير شعور من العبد ، وهذا الذى يعنون بقولهم : إن الحق ذكر نفسه بنفسه فى العبد .

ولا يعقل أن يقول مسلم عن نفسه أنا الله أو أنا الحق أو سبحانه على ظاهرها فى حال شعوره ، فإن ذلك كذب على الحقيقة وكفر بالله ، ولا يليق بمقام التوبة الذى هو أول مقامات السير .
ولا يتأتى فى أى مقام فوق التوبة إتيان ما يخل بها ، ومن ابتلى بشئ من ذلك خرج عن طريق الحق بتاتا ، وطولب بالبدء فى سلوك الطريق من جديد بتحقيق مقام التوبة ولا ييأس ، (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)^(١٨٦) .

وقد شبّه سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه من هذه حاله بقوم خرجوا من موضع يريدون موضوعاً بعيداً فجدوا فى السير طول ليلهم ولكنهم ضلوا الطريق فرجعوا إلى الموضع الذى خرجوا منه وهم لا يشعرون فلما طلع عليهم الصباح وجدوا أنفسهم فيه ، قال رضى الله عنه :

فهم فى السرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلوا

فمن نقض التوبة - والعياذ بالله - فقد رجع القهقرى وهدم كل ما بناه وكان كالتى نقضت غزلها بيدها .

وظن قوم خطأ أن الصوفية يعنون بالفناء صورة " النرفانا الهندوسية " ، وهى أن الروح جزء اقتبس من النور الأسمى ثم انغمس فى عوالم شتى فلما تخلص منها عاد وامتزج بأصله النور ، والفناء الذى يعنيه الصوفية المسلمون غير ذلك .

١٨٥ - سورة البقرة ، الآية ١٥٢ .

١٨٦ - سورة يوسف ، الآية ٨٧ .

يقول الشيخ أبو النصر السراج فى كتابه " اللمع " : " ومعنى الفناء والبقاء : فى أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد ببقاء رؤيا عناية الله فى سابق العلم " .

ويقول أيضاً عن الفناء : " وهو ذهاب القلب عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ، ثم يذهب عن ذهابه ، والذهاب عن الذهاب ، هذا ما لا نهاية له .

١ - فأول علامات الفانى : ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله .

٢ - ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له .

٣ - ثم تبنى رؤية ذكر الله تعالى له حتى يبقى حظه بالله .

٤ - ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه .

٥ - ثم ذهاب حظه برؤية حظه لفناء الفناء وبقاء البقاء " .

ويعنى بذهاب حظه : فناء شعوره .

وقال : " وقد رُعم أنه سُمع بعض المتقدمين أو وجد فى كلامهم أنه قال فى معنى الفناء عن الأوصاف والدخول فى أوصاف الحق ، فالمعنى الصحيح من ذلك : أن الإرادة من العبد وهى من عند الله عطية ، ويعنى خروج العبد من أوصافه والدخول فى أوصاف الحق : خروجه من إرادته ودخوله فى إرادة الحق ، وبمعنى أن يعلم أن الإرادات هى عطية من الله تعالى وبمشيئته شاء وبفضله جعل له ما يعطيه ، ذلك قطعه عن رؤية نفسه حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى ، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد .

وأما الذين غلطوا فى هذا المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا أن أوصاف الحق هو الحق ، وهذا كله كفر لأن الله تعالى لا يحل فى القلوب ، ولكن يحل فى القلوب الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره " .

وقال : " ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرق بين البشرية وأخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر كما أن لون الأسود لا يزول عن الأسود ولا لون الأبيض عن الأبيض ، وأخلاق

البشرية تبدل وتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق ، وصفات البشرية ليست هي عين البشرية ،
والذى أشار إلى الفناء أراد به فناء رؤيا الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك "
انتهى من كتاب " اللمع " .

وإذا فهم أن الحب قد بلغ بهم إلى درجة تعطلت معها الحياة العقلية الواعية ، نتيجة بلوغ المسلم
الذاهب إلى القرب الأدنى أرقى درجات الحب عندما يغيب فى دهشته فى كمال الحق سبحانه ،
وينقطع شعوره بحال فنائه ، فهنا يصح أن يقال : إن العبد استولى عليه سلطان الحق فلا يشهد شيئاً
سواه .

وأى مخالفة للشريعة فى ذلك ؟ وأين هو الحلول أو الاتحاد ؟ وأين هي العقيدة الهندوسية ؟ وهم
أبعد الناس عنها .

وكيف لا يفرق بين من يرى الفناء رجوع جزء إلى كله وبين من يرى الفناء دهشة عبد فى اجتلاء
جمال ربه ، عبد أحب ربه بكل ما فى وسعه ثم فوق ما فى وسعه ، فذهل واستغرق فى ذهوله حتى لم
يشعر لنفسه بوجود .

وحيث إن لبلوغ العبد مقام الفناء علامة ، هي أن يفقد العبد فيها إحساسه ، كما قال السرى
السقطى وهو من رجال القرن الثالث : " إن الصوفى فى حال الفناء لو ضُرب وجهه بالسيف لما
أحس به " ، فمن كان فانياً فلا يخفى حاله وهذه علامته ، وقد دهشت النسوة فقطعن أيديهن لرؤية
يوسف ، والفناء أعلى من ذلك .

وقد نُقل عن أبى الخير الأقطع أن قدمه جرحت ، فلما ضمد الجرح أشار عليه الطبيب بتر قدمه ،
ولكن أبى الخير أبى ذلك ، فقال أصحابه للطبيب : " لو قطعت قدمه أثناء صلاته لما أحس لأنه يغيب
عن حسه فيها " ، ففعل كما قالوا ، ولما قضى أبو الخير صلاته وجد قدمه قد قطعت .

ووصف الهجویری الفناء بأنه فناء إرادة العبد فى إرادة الله لا فناء وجود العبد فى وجود الله ،
وضرب لذلك مثلاً بالحديد تذيبه النار فإن النار تؤثر فى صفات الحديد دون أن تعدم جوهر الحديد .

فالفناء الإسلامى وجميع مقالات الصوفية إذا فهمت على حقيقتها فليست إلا الروح العملية الواقعية التى ينبغى أن يتصف بها المسلم المحب لربه الحب الصحيح ، وهى روح كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والحق لا يعرف بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، وقد عرفنا الآن حقيقة الصوفية الإسلامية والفناء الإسلامى ، فالأمر المقطوع به أن من كان كذلك فهو صادق وهو منهم ، ومن لم يكن كذلك فليس منهم .

فالخلاف بيننا وبين خصوم الشيخ محى الدين والشيخ ابن الفارض وأمثالهما : أننا نقول إنهم بريئون مما يخالف الشريعة ، وأن كلامهم إذا فهم على أصول الصوفية المسلمين لا يخالف الشريعة ، وقد دُس عليهم أشياء يردها إعلانهم عقيدتهم للملأ ، وما هو كالمقطوع به من كلامهم الصريح الذى لا لبس فيه ولا غموض .

ويجب على من غلب على ظنه براءة متهم ظلماً أن يدافع عنه حسبه لله تبارك وتعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : ((انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)) ، ونصره ظلماً أن يمنع من الظلم .

وحدة الشهود وحكم الشطحات عند القوم

روى مسلم فى صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم : ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجْرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَأْسِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) .

فهذا الرجل طاش بعقله الذهول عندما وجد طعامه وشرايه وراحلته فأخطأ من شدة الفرح ، فكيف بالغريب الظامئ يجد ماء الروح والميت تعود إليه الحياة ؟ قال تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)^(١٨٧) ، وإن الحياة بالله هى الحياة ، وليس فى الشريعة حرج على من غاب عقله بجل ، كمن شرب لبناً لا يحسبه مخامراً للعقل فخامرته ، فكيف بمن ذهل عقله فى ربه

١٨٧ - سورة الأنعام ، الآية ١٢٢ .

بسبب الذكر المندوب ؟ ولذلك عذرهم المحققون من العلماء قاطبة في سائر المذاهب ، ومن لا يعذر هؤلاء فقوله مهذور ، وقد اتفق السادة الصوفية على أن ما قيل في مثل هذه الحال لا يعد أساساً في طريق القوم ويعذر صاحبه لأنه مغلوب ، وهو بنفسه عندما يعود إلى حالته العادية يبرأ من كل قول قاله لا يطابق الحق ، وفي هذه الحال يصح أن ينسى العوالم ونفسه ، ولا يرى وجوداً لغير الحق عز شأنه .

وإذا صح أن عاشقاً رأى معشوقه فكلمه واسترسل معه في الحديث فلم يشعر بما حوله ، وواضح أنه لم ينعدم شيء من الوجود وإنما غاب هو عنه في غمرة لذته بمنجاة من يجب ، فأولى وأولى من أخذته صولة الأنس واحتوته أسرار القدس فأحرى أن يغيب ويغيب ولا يرى في الوجود كله إلا الله .

وهذه هي وحدة الشهود ، فلا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يكلم إلا مولاه ، غائباً عن كل ما سواه ، فإذا عاد إليه عقله رأى الخلق وأعطاهم رتبهم الممكنة ، وصاحب المشهد إذا كان مغلوباً فهو معذور ، وليس من أحب الحق فوق طاقته كمن أحبه قدر طاقته .

فوحدة الوجود عقيدة ، ووحدة الشهود حال ، كحال من سكر من حل فرأى جسمه ملاً البيت وجسمه كما هو ، وإنما ملاًه في نظره حال سكره وعندما يزول السكر يدرك الأمر على ما هو عليه . وقال الشيخ محي الدين في " لوائح الأنوار " : " من كمال العرفان شهود عبد ورب ، وكل عارف نفى شهود العبد في وقت ما فليس هو بعارف وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده " ، وقال في الباب السابع والستين وثلاثمائة : " اجتمعت روحى بهارون عليه السلام في بعض الوقائع فقلت له : يا نبي الله كيف قلت : (فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ) (١٨٨) ؟ ومن الأعداء حتى تشهدهم والواحد منا يصل إلى مقام لا يشهد فيه إلا الله ؟ فقال لي السيد هارون عليه الصلاة والسلام : صحيح ما قلت في مشهدكم ، ولكن إذا لم يشهد أحدكم إلا الله فهل زال العالم في نفس الأمر كما هو في مشهدكم أم العالم باق لم يزل وحُجبتكم أنتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم ؟ فقلت له : العالم باق في نفس الأمر لم يزل وإنما حُجبتنا نحن عن شهوده ، فقال : قد

نقص علمكم بالله فى ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فإنه كله آيات الله ، فأفادنى عليه الصلاة والسلام علماً لم يكن عندى " انتهى .

وليس من الإنصاف أن يحتج عليهم بما يقولون فى مثل حال استيلاء الحمى ويترك كلامهم الصريح فى حال الصحو والتمكين ، وأين الشريعة ؟ وأين حمل المؤمن على أصلح الوجوه ؟ وبذلك يتبين لك الحكم فيما يروى عنهم - بفرض صحته - مثل سبحانى ، وأنا الحق ، ونحو ذلك ، ومن عرف هذا وأحكمه لم يشتبه عليه ما قالوه فى حال السكر بكلامهم فى حال الصحو ، وأعطى كلاً حكمه ، والمقياس إنما هو الشرع الشريف .

وقد ورد أن الحق سبحانه إذا تكلم أخذت السماوات لهذا رجفة ، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخرروا له سجداً ، قال تعالى : (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)^(١٨٩) .

٩ - المعرفة

العبودية الكاملة - نهاية التوحيد

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)^(١٩٠) ، (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا يَلْقَسُطُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(١٩١) .

المعرفة : الإحاطة بعين الشيء كما هو ، وهى بهذا المعنى لا تصح لمخلوق ، فالإحاطة بكنه الحق سبحانه ممتنعة عليهم ، والمحدود لا يدرك ما هو أوسع منه حداً ، فكيف يدرك غير المحدود ؟ وقال صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الخلق بالله : ((سبحانه أنت كما أنثيت على نفسك لا أخصى ثناء عليك)) ، وإنما يراد بها الوصول إلى ما يمكن إدراكه من كماله المقدس عن الحدود بالتعريف الإلهي الظاهر بالخير ، والباطن بالفيض الرباني ، والتحقق بالأدب اللائق بالحق سبحانه .

وكلما ازداد العبد قرباً من الحق ازداد علماً وخشية ، قال تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(١٩٢) ، الخشية الكاملة ، والعلماء بالله الذين شهدوا كشهادة الملائكة .

والسالك سائر إلى ربه بين الخوف والرجاء ، فإذا دنا كان حاله القبض والبسط ، فإذا دنا كان حاله الهيبة والأنس .

وحال السالك فى البداية : (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينَ)^(١٩٣) .

فإذا دنا كان حاله : (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّهْدِينَ)^(١٩٤) .

فإذا أخذه الحق عنه كان سيره فى الله لا يشعر إلا به عز شأنه .

فإذا رده الحق إلى وعيه كان سيره عن الله تعرفاً وتصرفاً ، (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)^(١٩٥) ، فرجوعه لنفسه وللخلق لا بنفسه ، وإنما هو رحمة مهداة .

١٩٠ - سورة الكهف ، الآية ٦٥ .

١٩١ - سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

١٩٢ - سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

١٩٣ - سورة الصافات ، الآية ٩٩ .

١٩٤ - سورة الشعراء ، الآية ٦٢ .

١٩٥ - سورة الكهف ، الآية ٨٢ .

فالمعرفة أن تكون بالله فى جميع حالاتك ، وهى مقام الوراثة الكاملة للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، الوراثة الحسية والروحية ، والتحقق بالخلافة عن الحق سبحانه ، (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)^(١٩٦) ، (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)^(١٩٧) ، وفيها التحقق بالفرق بعد الجمع ، ويسميه القوم الفرق الثانى .

والفرق الأول هو الاحتجاب بالخلق عن الحق سبحانه والركون إليهم كما عليه العامة ، وبقاء الرسوم المعروفة وتعلق القلب بها ، ولا يخلص العبد منها إلا بالفناء ، وفيه إسقاط الرسوم والأسباب وعدم الشعور بالخلق جملة ، ولا يرى إلا الحق سبحانه كما تقدم .

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وأكمل من هذا المقام شهود الحق والخلق بالحق ، وهو مقام البقاء - الفرق الثانى - حيث يعطى المراتب حقها ، فلا يحتجب بالكثرة عن الوحدة ويرد الكثرة إليها ، ولا يحتجب بالوحدة عن الكثرة فإنها شأن من شؤونها .

والشمس واحدة ، وإذا سطع نورها على زجاجات مختلفة الألوان ظهر بألوان شتى ، ولم يتغير النور فى ذاته ، فمن نظر إلى كثرة الألوان وظنها أنواراً متعددة فما عرف ، ومن نظر إلى النور الواحد ولم ير مظاهره الكثيرة فما كملت معرفته ، ومن عرف أن الشمس هى لم تتغير ولم تتحد بالزجاج ولا حلت فيه وعرف آثار شروقها فقد عرف .

وأما تقريب بعضهم لقيام الكون بالحق سبحانه بقيام الصورة الثلجية بالماء :

وما الخلق فى التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذى هو نابع

فإجماعهم على أن الحق سبحانه منزه عن الشبه والمثل ، وأن ما يتوهم من أن المراد بذلك أنه سبحانه مادة الكون ضلال وباطل ، لا يقول به مؤمن ويأباه العقل الصحيح ، حيث أيقن أن الحق لا تقيده الأكوان بأى وجه من الوجوه ، ومن صورته سبحانه كإنسان لبس كل ثوب وخلع كل ثوب فما عرف

١٩٦ - سورة القلم ، الآية ٤ .

١٩٧ - سورة الأنفال ، الآية ١٧ .

الله عز شأنه وقد وصفه بوصف مخلوقاته ، وهذا هو الضلال البعيد فما لبس ولا خلع سبحانه ، وإن كان صاحب حال فقد ذهب عقله فلا يعتد بقوله .

وإنما مرادهم أن الصورة الثلجية ما قامت إلا بالماء ولا يعقل أن تقوم وحدها ، والكون كله لا قيومية له إلا بالحق سبحانه لا بنفسه ، ولا يشبه قيام الكون بالحق قيام الصورة بالخلق ، (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)^(١٩٨) ، فالمراد توضيح القيومية لا تشبيهها ، والله المثل الأعلى .

وقد ضرب الله المثل فقال سبحانه : (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ)^(١٩٩) ، وإنما هو تقريب مع القطع بالتنزيه ونفى التشبيه ، وكذلك كل ما يُذكر عنهم مما هو من هذا القبيل .

فأرقى أحوال القوم حال إيجابية لا سلبية كما يظن البعض خطأ ، فإن العارف يحس ببقائه بالله مع شهود استهلاك الخلق وفنائهم في الحق حيث لا وجود لهم من أنفسهم ، ولكنه بقاء بالصفات الربانية والفيض الإلهي لا بصفاته هو وأعماله ، فهو كريم رحيم حلیم عليم قرآني الظاهر والباطن ، يبدو بين الخلق كسائر الخلق داعياً إلى الحق بالحق ، ووصلته بالله أعلى منها في حال فئائه ، الوصلة اللائقة بالمتقن إلى الغنى المنزه سبحانه ، وهو الذي يتولى كل شؤونه ، وهذه هي حقيقة الولاية .

قال العارف ابن الفارض رضى الله عنه :

وظلتُ بها لا بى إليها أدل من به ضل عن سبل الهوى وهى دلت

والمعاملة مع الحجاب غير المعاملة على بساط المشاهدة ، قال تعالى : (أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى)^(٢٠٠) ومعروف أن الإنسان في العادة يستحي أن يرتكب ما تستنكره الناس أمامهم ، فكيف بمن رأى الجن والملائكة ؟ فكيف بالعارف الذى من الله عليه فزج به في ملكوته وفيما شاء سبحانه ، وكأنا هو فى الدار الآخرة ، وكانت حاله تشبه حال الملائكة فى عبادته وعبوديته ، وأنسه الحق به فهو نجى ربه وعبد ربه ؟ .

وكل كمالات المقامات السابقة مجتمعة مكتملة فى مقام المعرفة ، وفيه توحيد الفعل والأسماء والصفات ، وتوحيد الذات ، ووحدة الوجود والشهود ، والمجالى والتنزلات ، بتوحيد الحق نفسه

١٩٨ - سورة الصافات ، الآية ١٨٠ .

١٩٩ - سورة النور ، الآية ٣٥ .

٢٠٠ - سورة النجم ، الآية ١٢ .

لنفسه ، وهو الأحد سبحانه قبل الخلق ، وإنما شهد لنفسه بالوحدانية ، واعترفنا نحن بالحقيقة كما عرفنا سبحانه ، فأى فضل لنا ؟ .

وفرق بين معارف الفيلسوف والصوفى ، فإن الأول منشأ معارفه الفكر ، ويشترك الصوفى معه فى ذلك ويختص بالفيض القدسى الحق الذى لا دخل للفكر فيه .

وقال الشيخ سيدى محى الدين رضى الله عنه : " إن أهل الله العاملين على الإيمان يكون لهم إلقاء خاص لا يناله أبداً من لم يكن طريقه الإيمان " انتهى .

والأحوال : معانٍ ترد على القلب من غير تعمد ولا اكتساب ولا تكلف .

وإذا من الله على عبد بإعطاء صفات الروح لجسده ، لم يتقيد بالخصائص المادية المعروفة ، وكان لجسده ما للروح من الإطلاق الروحى ، يعرف ذلك من مارس هذا الشأن ، ويتحقق من فى مقام المعرفة بهذه الحال ، ومع ذلك فالحق يستره سبحانه فيبدو كعامية الناس ، ويتنزل للأسباب مع عدم تقيده بها وقد حلت له رموز الوجود ومعضلات المشاكل .

ولو أن رجلاً سار مع الخضر عليه السلام وحل له المشاكل كما حلها لموسى عليه السلام لما بقى فى قلبه عليه اعتراض فيما يصنع مهما خفى عليه سره ، فكيف بمن علّمه رب الخضر ؟ وانظر أدب الخضر عليه السلام حيث قال فى السفينة : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)^(٢٠١) ، وفى الغلام : (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)^(٢٠٢) ، وإنما قال : فأردنا ، لنسبة الخير لله ولأن ذلك مترتب على القتل وأراد نسبه لنفسه ، وقال : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا)^(٢٠٣) لأنه خير محض ، ذلك اللائق بأدب العبودية الكاملة .

٢٠١ - سورة الكهف ، الآية ٧٩ .

٢٠٢ - سورة الكهف ، الآية ٨١ .

٢٠٣ - سورة الكهف ، الآية ٨٢ .

لغة البرزخ

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابنِ عَمَرَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((يَبِينَا أَنَا نَائِمٌ أَتَيْتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ ، حَتَّى إِئِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَطْرَافِي ، فَأَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ مَنْ حَوْلَهُ : فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : الْعِلْمُ)) .

وأولُّ صلى الله عليه وسلم القميص بالدين ، وأولُّ سوارى الذهب بالكذابين مسيلمة والأسود العنسى ، ورؤيا سيدنا يوسف عليه السلام فى كتاب الله تبارك وتعالى ، وجاء تأويل القيد بالثبات فى الدين .

إذا فالمعانى تتمثل فى عالم الرؤيا للروح بصورة المبانى ، وتحتاج لعلم خاص لا يعرفه إلا من عرفه الله .

وقد يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو مثل الكمال - بصورة ليس لها إصبع أو ليس لها يد مثلاً ، فيكون تأويل ذلك : أنك أيها الرائي فيك استعداد للخير ولكن ينقصك الإحسان والكرم . وإنما يظهر صلى الله عليه وسلم للمرء بحسب مرآة قلبه ، فما كان من نقص فهو منها ، ومن رآه صلى الله عليه وسلم بصورة شخص قبيح فيصح أن يكون تعريفاً له برين على فؤاده ليزيله ، ولا بد من عرض ذلك على الشريعة ، فما قبلها فهو مقبول ، وإلا فهو مؤول .

ورؤية الحق سبحانه فى النوم فى صورة - وذاته العلية منزهة عن التقييد بالصورة - خطاب من الحق لعبده فى هذه الصورة ، تقوم فيه الصورة مقام الكتابة والنقش ، فهو خطاب رمزى - كما تقدم فى رؤياه صلى الله عليه وسلم - يفهم منه العارف المعنى المراد فى ذلك التجلى الصورى ، فهو تجلٍ من خلف حجاب الصورة ، يفهم فيه كما يفهم من معنى العلم فى اللبى .

ومن لم يعرف لغة عالم ، فكيف يعرف خطابهم ؟ ومن تحقق بلغة الملكوت والقدس الأعلى لا يخفى عليه التجلى الأحدى فى السماوات والأرض وفى كل شئ ، ويدرك الخطاب الأقدس ، ويفهم المراد فيه ، فهو مع الله بالله .

لقى بعض القوم رجلاً ، فأعطاه شيئاً وقال له : خذه لا لك ، فقال : قبلته لا منك .

وليس معنى هذا أن رؤية الحق سبحانه فى اليقظة فى الدنيا واقعة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((فَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، وإنما هى رؤية معنوية ببصيرة الروح ، لا يبصر الجسد .

ولعلك قد وضحت لك طرف السبب إلى شىء مما اختصوا به من المعارف التى أصلها الرسول صلى الله عليه وسلم ومُنحوها وراثته محمدية ، نزع الله عنهم رداء البعد ، وألبسهم الحلة الربانية ، وزودهم بالإذن منه ، الإذن الإلهى الخاص .

قال صلى الله عليه وسلم : ((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَخْبِنَهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِيبُوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)) .

فهذا هو الإذن الإلهى الخاص الذى يعنيه الصوفية رضى الله عنهم ، وهل يمنُّ الله على عبد فيسمعه النداء بفضله ؟ ليت شعرى كيف يكون حاله ؟ .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب : ((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ) لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) قَالَ : وَسَمَانِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَبَكَى)) رواه الشيخان والترمذى .

فلسانهم لسان حق ، وقلوبهم قلوب حق ، ويدهم يد حق ، ونظرهم نظر حق ، فهم الربانيون ، حكماء فقهاء ، والفقهاء الحق فقه الأرواح والأسرار ، قال تعالى : (وَلَكِنْ كُوتِبُوا رَبَّانِيْنَ يَمَّا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَّا كُنْتُمْ تُدْرَسُونَ) (٢٠٤) .

على هامش فصوص الحكم

وجود موجود أمر يقينى ، لا مجال للشك فيه عند أى عاقل ، وكل امرئ يعرف نفسه أنه موجود بيقين ، وهذه المعرفة اليقينية إدراك الوجود جزء منها ، وسواء استطاع المرء أن يعبر عنه أو لم يستطع . فالوجود أمر ضرورى عند العقلاء لا يحتاج إلى تعريف ، ويعرف العدم بأنه انتفاء الوجود ، وهو نقيضه ، فلا يصح فى العقل وجود أمر وعدم وجوده فى آن واحد بوجه واحد .

الواجب ، والممكن ، والمستحيل

ولا يخرج تصور العقل الإنسانى عن :

موجود لا يجوز عليه العدم : وهو الواجب .

ثم موجود يجوز عليه العدم ومعدوم يجوز عليه الوجود : وهما قسم واحد : ممكن ، يجوز عليه الوجود والعدم .

ومعدوم لا يجوز عليه الوجود : وهو المستحيل : وهو عدم محض .

فالواجب سبحانه وجوده ذاتى له ، فلم يكن معدوماً ومُنح الوجود من غيره ، ولا يتأتى أن يطرأ عليه العدم بوجه من الوجوه .

ثم الممكن الذى تعلق الإرادة الأزلية بوجوده ، لا بد من وجوده ، وإن أطلق عليه أنه واجب بوجه من الوجوه ، فوجوبه نسبى ، لأنه لا بد من كونه ، ولا يخرج ذلك عن رتبة الإمكان ، فإنه من حيث ذاته قابل للعدم ، ولولا تعلق الإرادة الأزلية بوجوده لما وجد .

ثم الممكن الذى تعلق الإرادة الأزلية بعدمه ، لا سبيل إلى وجوده ، وإن أطلق عليه أنه مستحيل بوجه ما ، فهو مستحيل نسبى لأنه لا يتأتى اتصافه بالوجود ، ولا ينقله ذلك عن رتبة الإمكان ، لأنه من حيث الذاتية قابل للوجود ، ولو تعلق الإرادة بوجوده لوجد .

والمستحيل ، والممكن الذى لن يوجد ، والممكن الذى سيوجد قبل وجوده ، مراتبها متميزة فى التفكير الصحيح مع اتصافها جميعاً بالعدم .

فالمستحيل لا يجوز أن تتعلق الإرادة الأزلية بوجوده .

والممكن الذى لن يوجد ، لو تعلق الإرادة الأزلية بوجوده لكان .

والممكن الذى تعلق به الإرادة ، هو حال عدمه مقطوع له بأنه سيظهر متصفاً بالوجود

الإضافى ، ولا قيومية له من ذاته باتفاق .

فالمراتب متميزة حال عدمها .

والممكن الذى تعلق الإرادة الأزلية بوجوده ، مرتبه حال عدمه غيرها حال وجوده .

فهذه المراتب جميعها لا يصح أن تختلط فى العقل الصحيح أو فى النقل الصحيح أو فى الكشف

الصحيح ، فلا يتأتى أن يصبح المستحيل الذاتى مستحيلاً بالغير ولا ممكناً ، ولا يتأتى أن يصير الممكن

واجباً وجوباً ذاتياً ، أو الواجب الذاتى ممكناً ، لا عقلاً ولا نقلاً ولا كشافاً مجال من الأحوال .

وقد أجمع أهل الله قاطبة على أن الأصل الذى لا يختلف فيه أحد منهم : أن مراتب العلم لا تتغير،

وكل ما فهم من كلامهم رضى الله عنهم على غير هذا الوجه ، فصاحب ذلك الفهم قد أخطأ

الصواب فى فهمه لأنه لم يعرف اصطلاحهم فى التعبير ، وبيانهم للمجمل من كلامهم هو الحجة فى

فهم كلامهم .

وكل من خلط بين الحادث وبين القديم فما عرف الله ، ولا عرف الشريعة ، ولا الحقيقة ، ولا

عرف الكون ، وهو بمعزل عن المعرفة ، بمعزل عن الإسلام من أصله .

فمن قال : أنا الله أو أنا فى الله أو إن الله فيه ، فإن كان قد غلب عليه حال يعذره الشرع فيه فى

حقيقة الأمر ، فهو عند الله معذور ، وهو فى هذه الحال لا يريد مفهوم هذا القول المعروف من

التجسد أو الحلول أو الاتحاد أو التحول قطعاً ، وقد يسلك بها سبيل المجاز على وجه اصطلاحى

يعرفه من يخاطبهم ، ومن استقرأ كتب القوم رضى الله عنهم وجد ذلك مقررأً بأوضح تبيان فى كتبهم

التي ذكر فيها مثل هذا التعبير الموهم .

ومن نطق بهذا وهو يريد ذلك المعنى المعروف فهو كافر جاهل بربه ليس له فى الإسلام نصيب ،

وقانا الله الزلل بمنه وفضله والمسلمين ، آمين .

ومن ظن أن الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن العربى يخفى عليه تمييز المراتب فما عرفه ، وكتبه

رضى الله عنه مملوءة بتلك التفاصيل وإعطاء كل مرتبة حقها ، وما رأينا معترضاً عليه سلم من التجنى عليه أو عدم الاستقصاء لتحقيقه ، وفي كلامه رضى الله عنه من الأصول والقواعد ما يعين أن مقصده فى واد وكلام المعترضين فى واد آخر .

والكامل الجواد القادر على الإعطاء ، إن لم يعط بالفعل فهو معط بالقوة ، والإعطاء بالفعل أعلى مرتبة من الإعطاء بالقوة .

والحق سبحانه لا كمال مثله ، فهو أعلى الكمال ، فهو معط بالفعل ، ولو قبل الممكن الوجود فى الأزل لأعطاه الوجود ، ولكن حيث إن مرتبة الممكن فى ذاتها لا تكون إلا مسبوقه بالعدم ، فقد أعطاه الحق الوجود على مقتضى مرتبته ، وحيث إن الإرادة الأزلية قد تعلقت بهذا العطاء أزلاً فقد أعطاه الوجود أزلاً ، فهو معط بالفعل أزلاً ، والممكن وهو معدوم - قبل أن يفاض عليه الوجود - وإن اشترك مع المستحيل فى كونه معدوماً بالفعل إلا أن الممكن قابل للوجود ، والمستحيل غير قابل له ، ورتبة وجود الممكن بالفعل أعلى من رتبته وهو فى العدم ، وعلى هذا فكماله إنما يكون فى وجوده .

فكان مراتب الممكنات وهى فى طى العدم تسأل بحالها المنعم الجواد سبحانه أن يتفضل عليها بنعمة الوجود فما فوقها .

والعارف ينظر إلى الكمال من حيث هو ، ولا ينظر إلى الألم الحسى والنعيم الحسى فى هذه المرتبة ، فإنه لا ينفى أن من كان أكثر اتصافاً بالكمال فهو أعلى ممن هو دونه ، وإن كان الأعلى فى الكمال متألاً فى حياته ومن هو دونه متنعماً .

وعلى هذا فكل الموجودات ساجدة فى نعم الحق السابغة بمجرد تشرفها بإفاضة حلة الكمال - الوجود - عليها .

هذا هو مرمى بصر العارفين المحققين وذلك مع الاحتفاظ بتفاوت مراتب الكمال ، فكلما ترقيت فى مراتبه وازددت كمالاً فأنت أقرب إلى الكمال الذاتى ، كمال الحق عز وجل .

ولما كانت مراتب الممكنات ، منها مرتبة تظهر فيها صفة الوجود فحسب ، ومرتبة تظهر فيها صفتان ، ثم ثلاث ، ثم أربع ، ثم خمس وهكذا ، فالوجود الممكن ما هو إلا مراتب ظهور كمالات

الحق سبحانه ، فما ظهر في مراتب الوجود إلا أسماؤه الحسنى عز شأنه : الحق ، القادر ، المرید ، العليم ، الحى ، السميع ، البصير ، المتكلم ، وسر فى الكمال حيث استطعت .

ومراتب الممكنات لا يمكن أن تظهر للوجود إلا حاملة كمالات الحق سبحانه ، وهى تطلب كمالها - طلباً ذاتياً - بالظهور بهذه الكمالات التى هى أسماؤه الحسنى عز شأنه .

فإن قلت : إن هذه المراتب ظهرت بالحق وفى الحق ، فأنت صادق ، بالحق : بإرادته ، ومن العمه عن الحقيقة أن تظن أن " فى " هنا تقتضى الحيز أو الظرفية أو أى صورة من صور " فى " فى الممكنات ، وإنما المراد هنا أن وجودها ليس بذاتى ، فهو متلاش فى وجود الحق مع الاستناد إليه عز شأنه ، وثبوت القيومية به سبحانه ، لا بشئ من الممكنات ولا بنفسها .

وإن قلت : إنما ظهرت أسماء الحق فى هذه المراتب ، أو ظهر الحق بكمالاته بأسمائه الحسنى فيها ، فأنت صادق ، فالمعطى المنعم سبحانه تفضل أزلاً ، فتعلقت إرادته بأن يظهر فى مراتب الممكنات بكمالاته التى لا يبلغها العد والإحصاء فى جميع مراتب الوجود الممكن .

فما شاء فى الحقيقة إلا أن يرى كمالات ذاته المنزهة فى تلك المراتب ، وكمالاته ذاتية فإنه متصف بها أزلاً وأبداً ، وظهور كمالاته ظهور له سبحانه ، فما رأى فى الوجود إلا كماله ، أو ما رأى فى الوجود إلا ذاته سبحانه متجلية بكمالاتها ، فقد شاء من حيث كمالاته الذاتية من حيث أسماؤه الحسنى أن يرى هذه الكمالات - الأسماء الحسنى - أو يرى عينه فى ظهور كمالاته ، فى كون جامع فى مراتب الممكنات يحصر الأمر كله ، من حيث ما يقبل الحصر : أى الظهور فى مرتبة الممكن تتجلى فيه أسماؤه الحسنى .

وقول الشيخ الأكبر رضى الله عنه : " يرى عينه - لأن ذلك أعلى شرف للممكن - أن يبسط الحق عليه رداء كماله " .

وليس من المعقول إرادة أن الحق سبحانه وتعالى تنقصه رؤية عينه ، أى كمالاته ظاهرة فى مراتب الممكنات ، تقدس عن ذلك ، وإنما الظهور مقتضى الغنى والجود ، غنى الحق وجوده ، ويقابله الافتقار ، وطلب الممكنات بلسان حالها التشرف بالاتصاف بالأسماء الربانية - بالكمالات - على ما تقتضيه سعتها ، من غير توهم تأثير لطلب الممكنات بحالها للظهور ، وإنما هو الجود المحض .

وليس بين الخالق والمخلوق نسبة إلا الغنى المطلق يقابله الافتقار المطلق ، لكونه متصفاً بالوجود ويظهر به سره إليه .

فكأن الممكنات بلسان حالها طلبت من الحق أن يسبغ عليها حلل الكمال ، كل مرتبة بما يناسبها ، فالمرتبة التي يظهر فيها اسم تطلب ظهوره ، واسمين ، وثلاثة .
ومرجع الأسماء كالرحمن ، والرحيم ، والملك ، والقُدوس ، والمعطى ، والمانع ، والهادى ، والمحبي ، والمميت - إلى الاسم الجامع : الله .

فكل مرتبة تطلب الأسماء التي تقتضيها منزلتها من مراتب الوجود ، وتطلب " الله " الاسم الجامع الذي هو مرجع الأسماء التي تظهر فيها من حيث أفراد الأسماء ومن حيث مجموعها .
وبهذا يتضح لك معنى قول الشيخ رضى الله عنه : " إن أعيان الممكنات طلبت الأسماء ، والأسماء دخلت على الاسم الجامع وطلبت منه أن يمنَّ على مراتب الممكنات بظهور الأسماء فيها ، وإن الاسم الجامع دخل على الذات " انتهى .

وكل ذلك إنما هو تصوير للاقتضاءات الذاتية للوجود المطلق والغنى المطلق ، وأن الكون وهو مجموع مراتب الممكنات العدمية فى تشرفه بنعمة ظهور كمالات الحق فيه إنما اكتسب هو شرف الظهور بالكمالات الربانية ، أما الحق سبحانه فكماله هو كماله ، مستحيل أن يزداد كمالاً بظهور الكون ، أو ينقص بعدمه .

فالكون هو صورة الكمالات الحقية بما يتناسب مع مراتبه ، تفصيلاً فى مراتب التفصيل ، وإجمالاً من حيث الأسماء فى الاسم الجامع .

وهذا أيضاً معنى قولهم : إن الكون بمجموعه صورة الحق سبحانه ، أى أن كمالاته عز شأنه ظهرت فى مراتبه ، كالحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحكمة ، والجود ، والعدل ، وهذا هو معنى الحديث أن الحق سبحانه ((خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)) ، أى متصفاً بالكمالات الربانية ، لا أنه صورة بالمعنى المفهوم فى الحوادث ، فإنه مستحيل ، ففيه العلم ، والحياة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجود ، والرحمة ، والحكمة ، وما لا نحصىه من الكمالات .

طريق الله واحدة ، وكل الطرق مسالك فيها

اختلف أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الفتاوى الفقهية ، ولم يكن ذلك سبباً فى عداوة بينهم ، وكذلك التابعون وتابعوهم ، وقد أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على أن ذلك الخلاف لا يجعلهم فرقاً متعددة ، حيث إنهم جميعاً على عقيدة واحدة ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يفسق بعضهم بعضاً ، وأن الخلاف فى الفروع لا يضرهم فى دينهم ، حيث إن كلاً منهم مجتهد أو تابع لمجتهد ، فالبسملة لا تصح صلاة من تركها فى الفاتحة عند الشافعى ، وقال أبو حنيفة ومالك رضى الله عنهما بخلاف هذا ، واختلف رجال المذاهب حتى فى المذهب الواحد ، وكلمة الوفاق بينهم أن ذلك لا يدعو إلى تكفير ولا تفسيق ولا تبيح .

وليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر

وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك النوع من الخلاف ، عندما أمرهم صلى الله عليه وسلم أن لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فصلى قوم فى الطريق وأخر قوم الصلاة إلى أن وصلوا بنى قريظة ، ولم يعنف أحداً ، وإقراره صلى الله عليه وسلم حجة ، وحكم القاضى المجتهد أصاب أو أخطأ ، وكونه مثاباً على أى حال ثابت فى السنة .

وإذا درسنا الخلاف بين أهل الطرق ، وجدنا الخلاف بين الفقهاء أوسع منه وأبعد ، فإن الخلاف بين الفقهاء حاصل فى الحلال والحرام والصحة والبطلان ، فى أركان الدين من صلاة وصيام وحج وزكاة ، وفى أبواب المعاملات ، ومع هذا لم يضرهم الخلاف فى دينهم ، حيث لم يقصدوا منازعة الشارع ، وإنما قصدوا المتابعة وبذلوا جهدهم ، وحكموا بما أراهم الله ، ولم يهدموا أصلاً من أصول الدين ولا خرجوا عن قواعده .

وتعال فاجتِ خلاف أهل الطرق ، وستجد عقيدتهم واحدة ، هى عين العقيدة التى عليها كافة المسلمين المستمسكين بالكتاب والسنة ، مهما عبروا عنها بأساليبهم الخاصة ، وحلالهم واحد ، وحرامهم واحد ، وحكمهم فى ذلك حكم أهل المذاهب ، ويصح أن يكون عدة رجال من طرق شتى مذهبهم واحد فى الفروع ، وإذ ذاك ليس بينهم خلاف لا فى الأصول ولا فى الفروع .

فماذا خلافهم إذا ؟ أبسط خلاف .

هذا يرى أن الأقرب فى التقرب إلى الله أن يكثّر من تلاوة كتاب الله تعالى ، والآخر يرى أن أفضل ما فى كتاب الله الكلمة المشرفة " لا إله إلا الله " فيجعلها أكثر عبادته لأنها ذكر وقرآن فى آن واحد ، والآخر يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا)) وعن سيدنا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ العاص رضى الله عنهما قال : " مَنْ صَلَّى عَلَيَّ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلَاةً " رواه أحمد بإسناد حسن ، وقد قال تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (٢٠٥) ، وهذا نص صريح من الشارع على طريق الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن قرأ القرآن ما ترك التنفل بالصلاة وباقى العبادات ، ومن اختار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو التسبيح أو الذكر بالأسماء أو أى عبادة ما ترك العبادات الأخرى ، وخلاصة الأمر أن الكل حسن وخير .

فهل هذا يا فقهاء ويا علماء ويا متعلمين خلاف ينطبق عليه كما زعم الأفاكون - (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَسْتَأْذِنُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (٢٠٦) - أشهد بالله أنهم افتروا على الله وكذبوا على كتابه بتنزيل كلامه الشريف على غير موضعه ، وأنهم ما فقهوا الكتاب ولا عرفوا الصوفية ، غفر الله لنا ولهم .

فالحقيقة التى لا تقبل أى نزاع هى أن طريقهم طريق واحدة فى الأصول والفروع ، أما ما اختلفوا فيه من الأولى وخلاف الأولى أو الأقرب فى السير ، فهو كلا خلاف ، حيث لا يعدو إحدى الحسينين لأنه دائر بين حسن وأحسن .

ومنازل السير هى فى كل طريق ، وإن اختلف سير كل بحسب حاله ، فمنهم من يجتازها على أن المقام الأول النفس الأمانة ، والثانى النفس اللوامة ، والملممة ، والراضية ، والمرضية ، والمطمئنة ، والآخر يجاهد نفسه على إزالة الرين ، (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٢٠٧) ، فيجتازها كحجب .

٢٠٥ - سورة الأحزاب ، الآية ٤٣ .
٢٠٦ - سورة الأنعام ، الآية ١٥٩ .
٢٠٧ - سورة المطففين ، الآية ١٤ .

والآخر يتوجه إلى ربه بأسمائه سبحانه (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)^(٢٠٨) ، والآخر يرى الذكر السرى أقطع للحجب وأسرع بالروح للتجريد القدسي .

والآخر ينظر إلى الأخلاق والمقامات ، من التوكل ، والصبر ، والشكر ، واليقين ، وما إلى ذلك . وانظر مدارج السالكين للشيخ ابن القيم شرح منازل السائرين للإمام الهروي المحدث المفسر الصوفي رضى الله عنه ، وقد نقل عن الشيخ أبى بكر الكنانى رضى الله عنه أن بين الحق والعبد ألف مقام ، وقد اختصرها فى كتابه فى مائة منزلة .

مع التسليم لكل فى طريق وصوله ومدارج سيره فى تلك المقامات التى أجمع الكل على أنها حق وما رأينا شيوخ الطرق تكلموا عن طرق أخرى ورجاها إلا بكل خير وتجلة واحترام ، وكلام أى شيخ من السادة الصوفية حجة عند أهل الطرق قاطبة ، وكل يستدل فى كتبه بأقوال جميع أهل الطرق ولا عبرة بمنافسة بعض التلاميذ القاصرين الذين لم يعرفوا أصول الطريق ، فليس فى ذلك أى حجة على أساس الطريق ، فإنهم خالفوا قواعد الطريق التى انتسبوا إليها ، ومن تمكن فى أى طريق سلم لسائر الطرق .

ومن درس التصوف والطرق الصوفية دراسة نزيهة عرف أنها مدارس أخلاقية لتهديب النفوس وترويضها عملياً على الطاعة والبلوغ بها إلى أقصى درجات المعرفة ، وأيقن أن بدايتها جميعاً التوبة ، وسيرها الترقى فى مدارج الشريعة بالتقرب بنوافل الخير ، ونهايتها المشاهدة المطابقة للشرع ، وأن كلاً اختار سبيلاً يراه أسهل فى الوصول إلى الغاية ، أو يراه أليق بحاله مع احترامه للجميع ، كاختلاف المدرسين فى مدرسة واحدة فى تدريس مقرر واحد ، فلكل طريقته فى التعليم ، والكتاب واحد . وأهل الحديث رضوان الله عليهم - من مضى منهم والحاضرون - ما خرجوا عن قواعد الحديث ، فهم فى سبيل واحدة ، وكذلك من يأتى بعدهم ، ماداموا لم يخرجوا عن القواعد التى درج عليها سلفهم ، وقل ذلك فى أهل الفقه من أى مذهب من المذاهب .

وكذلك الصوفية رضوان الله عليهم طريقتهم واحدة ، من مضى والحاضرون ، ومن يأتى بعدهم مادام سائراً على قواعدهم ولم يخرج عنها ولم يبدل ، وقد وضع الحق واستنار السبيل .

٢٠٨ - سورة الأعراف ، الآية ١٨٠ .

تحديد العدد في الذكر

زعم قوم أن تحديد المرء لنفسه عدداً من الذكر بدعة ، وهو خطأ مردود على قائله لأنه معارض لما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال صلى الله عليه وسلم : ((أَحَبُّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ ، وَإِنْ قَلَّ)) رواه الشيخان .

وبدهى - عند من له إلمام باللغة - أن من يداوم على عبادة لا تكون إلا معلومة محدودة ، وهذا التحديد موكول إلى طاقة كل إنسان .

وذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة ، فأخذت إحدى نسائه تذكر من عبادتها ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)) وهو فى الصحيح .

وموافقته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص فى عبادته عندما قال : إني أطيع أفضل من ذلك - إلا ما كان مظنة المشقة - نص عملى مع النص القولى .

وأخرج أبو داود أن أبا هريرة كان له كيس به حصى أو نوى يسبح به ، ونقل الحافظ ابن رجب الحنبلى أنها كانت اثنتى عشرة ألف حصاة .

وعن صفية رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وَبَيْنَ يَدَيْهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ نَوَاةٍ تُسَبِّحُ بِهِنَّ ، فقال : ((يا بنت حبي ما هذا ؟ قالت : أسبِّحُ بِهِنَّ ، قال : قد سبحت منذ قمت على فراشك أكثر من هذا ، قالت : عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : تَقُولِي سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ)) أخرجه الترمذى ، والحاكم وابن حبان وصححاه ، ومثله حديث جويرية وحديث سعد رضى الله عنهما .

وكونه صلى الله عليه وسلم دلها على ما هو أفضل معناه أن هذا حسن وله فضل ، ولم ينهها صلى الله عليه وسلم ولا غيرها ، ولو كان حراماً لنهى عنه صلى الله عليه وسلم .

فأى فقه لعبد ينهى عما أقره صلى الله عليه وسلم ؟ .

ومن العجيب أنهم يريدون فرض خطئهم على الأمة ! وما رأينا إماماً فرض مذهبه على الأمة ،

وها هو ذا إمام دار الهجرة طلب منه الخليفة أن يحمل الناس على مذهبه ، فأبى لأن شيئته الإنصاف رضى الله عنه ، فهل هؤلاء شموا أخلاق السلف ؟ أو يعرفون الإنصاف ؟ .

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزد عن ثلاث عشرة ركعة ، لا فى رمضان ولا فى غيره ، وإجماع الأمة منعقد عملياً على أن للمسلم أن يقيم الليل بأكثر من ذلك أو أقل ، وأن ذلك موكول إليه فى تقدير طاقته ، وعمل الصحابة معروف ، ولو كانت الأمة مقيدة بالعدد الذى كان يتعبد به صلى الله عليه وسلم يحرم عليها مخالفته ، لما زادوا عما كان يفعله صلى الله عليه وسلم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث صلاها عشرين ركعة والصحابة كذلك ، وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حيث جعلها ستاً وثلاثين ، وليس بين علماء المسلمين فى ذلك خلاف .

وإذا فكل مسلم أعرف بطاقته ، فمتى حدد لنفسه قدرأ من أى عبادة لا يشق عليه وداوم عليه فهو أحب الأعمال إلى الله بنص المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولا جناح علينا أن نضرب بقول من تنازع فى ذلك عرض الحائط .

وحدیث أبى بن كعب معروف ، قال : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي ؟ فَقَالَ : ((مَا شِئْتَ ، قُلْتُ : الرَّبْعَ ، قَالَ : مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قُلْتُ : النُّصْفَ ، قَالَ : مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قُلْتُ : أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا ؟ قَالَ : إِذَا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ)) ، قال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح ، وأخرجه أحمد فى المسند والطبرانى بإسناد حسن .

فانظر معنى الربع والنصف ومعنى ما شئت ، وقل : إن من يزعم أن التحديد بدعة هو أحق بأن يكون هو المبتدع ، فإنه متقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يحرم ما أذن به المصطفى صلى الله عليه وسلم وحض عليه وجرى عليه أصحابه من بعده .

والحكمة فى ذلك : التخفيف على الأمة ، وتنظيم العبادة ، ومن تعود على قدر من العبادة قل أو كثر - مادام لا يشق عليه - ينطبع أثره فى نفسه ، والتعود على الخير يسوق إلى الخير .

الدعاء بما يلهم الله عبده أجازته الشريعة

ومن زعم أن الدعاء بغير ما دعا به صلى الله عليه وسلم بدعة ، فقد افترى على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الشريعة ، فقد فعل ذلك أصحاب المصطفى وأقرهم صلى الله عليه وسلم ، وإقراره شرع .

عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَقَالَ : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ)) أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعِ ، وَحَسَنَهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ ، وَقَالَ الْحَافِظُ الْمُقَدِّسِيُّ : لَا مَطْعَنَ فِيهِ .

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث أنس رضي الله عنه ، قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأعرابي وهو يدعو في صلاته وهو يقول : يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، ويعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل ، وأشرق عليه النهار ، ولا توارى منه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا بحر ما في قعره ، ولا جبل ما في وعره ، اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك فيه ، فوكل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأعرابي رجلاً ، فقال : ((إِذَا صَلَّى فَاتْنِي بِهِ ، فَلَمَّا صَلَّى أَتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ ، وَقَدْ كَانَ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبٌ مِنْ بَعْضِ الْمَعَادِنِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ وَهَبَ لَهُ الذَّهَبَ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِي ، هَلْ تَدْرِي لِمَ وَهَبْتُ لَكَ الذَّهَبَ ؟ قَالَ : لِلرَّحْمِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، قَالَ : إِنْ لِلرَّحْمِ حَقًّا ، وَلَكِنْ وَهَبْتُ لَكَ الذَّهَبَ لِحَسَنِ ثَنَائِكَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَصَحَّحَهُ الْحَافِظُ الْهَيْثَمِيُّ وَأَقْرَهُ الشُّوكَانِيُّ .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه ، أو أغبر بطنه ، يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سَكِينَةً عَلَيْنَا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا

ورفع بها صوته ، أبيننا أبيننا ، فقد دعا صلى الله عليه وسلم بكلام ألفه عبد الله بن رواحة .
وإقراره صلى الله عليه وسلم لمن دعا بما ألهمه الله كثير في السنة ، وإنما أردنا أن نلم بطرف منه ،
والهدى هدى الله .

فحيث أجاز صلى الله عليه وسلم أصحابه على ثنائهم على الله ، وأقر دعاءهم ، وتمثل بدعائهم ،
فهذه أبلغ إجازة من المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وما أجازته لفرد من أمته فهو جائز لجميعها ، فإنه
نبي الأمة ورسولها إلى يوم القيامة ، لا نبي عصر دون عصر .

وقد حدد صلى الله عليه وسلم الممنوع من الدعاء : ((مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ يَدْعُوهُ إِلَّا
آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ :
إِذَا نُكِّرَ ، قَالَ : اللَّهُ أَكْثَرُ)) رواه الترمذى عن عبادة رضى الله عنه ، وقال : حسن صحيح .

وهذا الحديث بيان لقوله صلى الله عليه وسلم : ((سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ)) ، ولم يقل
صلى الله عليه وسلم يدعون بغير ما أدعوه به ، ومن ضياع الزمن أن يدعوا بالفضول من القول ، وإن
لم يكن إثماً .

وقد دعا أصحابه صلى الله عليه وسلم بعده بما ألهمهم الله ، ولم يقتصرُوا على ألفاظه الشريفة
صلى الله عليه وسلم مع علمهم بأنها أفضل الدعاء ، ولو كان ذلك محرماً لما فعلوه .

ولا يستطيع أحد ممن يدعون الاتباع زوراً أن يأتي بنهى عن ذلك بخصوصه ، لا من قوله صلى الله
عليه وسلم ولا من قول الصحابة ولا التابعين ، وكتب الفقه فى سائر المذاهب مشحونة بالنصوص
على جواز ذلك وحافلة بما دعا به الصالحون .

قال الشوكانى فى " تحفة الذاكرين " عند ((ثُمَّ لِيَتَّخِيزَ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو)) : " الحديث
أخرجه البخارى ، كما قال المصنف رحمه الله ، وهو طرف من حديث ابن مسعود المتقدم فى التشهد ،
وأخرجه بهذا اللفظ مسلم وأبو داود ، وفيه التفويض للمصلى الداعى بأن يختار من الدعاء ما هو

أعجب إليه ، إما من كلام النبوة أو من كلامه " .

وقال أيضاً : " وما أحسن ما كان يدعو به الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فإنه كان يقول : يا من وسعت رحمته كل شيء ، أنا شيء فلتسعن رحمتك يا أرحم الراحمين ، وقلت أنا : يا من كتب على نفسه الرحمة لعباده ، إنى من عبادك فارحمنى يا أرحم الراحمين " انتهى .
ومن المضحكات أن بعض المدعين كتب رسالة ادعى فيها تحريم الدعاء بغير ما دعا به صلى الله عليه وسلم ، ثم ختمها بدعاء من عند نفسه من تأليفه .

وعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَيْسَ أَلْ أَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شَيْئاً نَعْلَهُ إِذَا انْقَطَعَ)) أخرجه الترمذى .

ولما كانت عادات الناس وهمومهم متفاوتة ، فلا بد من اختلافهم فيما يدعون ، وقد أذن لهم صلى الله عليه وسلم بأن يدعوا الله بمختلف حاجاتهم ، وإذنه صلى الله عليه وسلم شرع ، فتعتبر هذه الأمور من نوافل الخير ، فتسمية ما أذن به المصطفى صلى الله عليه وسلم بدعة ، خطأ شنيع يطرح ولا يلتفت إليه ، وليس صاحبه بالمعصوم .

وأخرج البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه قال : " اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك ، قالت حفصة : أنى يكون هذا ؟ قال : يأتينى به الله إذا شاء " .

وعن عبد الله بن سبرة قال : كان عبد الله بن عمر إذا أصبح قال : " اللهم اجعلنى من أعظم عبادك نصيباً فى كل خير تقسمه الغداة ، ونوراً يهدى ، ورحمة تنشرها ، ورزقاً تبسطه ، وضراً تكشفه ، وبلاء ترفعه ، وفتنة تصرفها " رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وعن سعيد بن جبير قال : " كان ابن عباس يقول : اللهم إنى أسألك بنور وجهك الذى أشرقت له السماوات والأرض أن تجعلنى فى حرزك وحفظك وجوارك وتحت كنفك " رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وعن أبى الأحوص قال : " سمعت عبد الله يعنى ابن مسعود يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى

أسألك بنعمتك السابغة التي أنعمت بها علي ، وبلائك الذي ابتليتني ، وفضلك الذي أفضلت علي ، أن تدخلني الجنة ، اللهم أدخلني الجنة بفضلك ومنك ورحمتك " رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

وعن عبد الله بن عكيم أن ابن مسعود كان يدعو : " اللهم زدني إيماناً و يقيناً وفهماً " ، أو قال علماً رواه الطبراني وإسناده جيد .

وعن امرأة من بنى النجار قالت : " كان بيتي من أطول بيت حول المسجد فكان بلال يؤذن عليه الفجر ، فيأتي بسحر فيجلس على البيت يرقب الوقت ، فإذا رآه تمطى قال : اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يقيموا دينك ، ثم يؤذن ، قالت : والله ما علمته ترك هذه الكلمات ليلة واحدة " رواه أبو داود ، وأدعية الصحابة مستفيضة .

الصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : " إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرّون لعل ذلك يعرض عليه ، قال : فقالوا : علمنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم ابعته مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " رواه ابن ماجه وحسنه الحافظ المنذرى .

ومن طريق سعيد بن منصور ويزيد بن هارون وزيد بن الحباب ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس ، حدثنا سلامة الكندى أن علياً رضى الله عنه كان يعلم الناس هذا الدعاء : " اللهم داحى المدحوات ، وبارئ المسموكات ، وجبار القلوب على فطرتها ، شقيها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك وفضائل آلائك على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق والمعلن الحق بالحق ... إلخ " .

قال الحافظ ابن كثير : " هذا مشهور من كلام على رضى الله ، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل

الحديث ، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم " انتهى .

وقد أعلّ بعضهم سند الحديث بأن سلامة الكندى لم يدرك علياً ، وأشار لرد هذا القول برواية الحافظ أبى القاسم الطبرانى لهذا الأثر عن محمد بن على الصائغ عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح ابن قيس عن سلامة الكندى قال : كان على رضى الله عنه يعلمنا الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : اللهم داخى المدحوات ، وذكره .

وعن الإمام الشافعى رضى الله عنه فى الرسالة : " وصلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون ، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون " .

وقد مدحه أصحابه صلى الله عليه وسلم شعراً وأجاز من مدحه ، ومن زعم أن مدحه شعراً جائزاً ونثراً لا يجوز ، فهو محتاج لمستشفى العقول ، نسأل الله السلامة من الخطأ والهوى ، غير أنك لا ترفعه صلى الله عليه وسلم عن رتبة البشر كما أله النصارى عيسى بن مريم ، ولا خلاف فى أن الألفاظ المصطفوية الشريفة هى الأفضل والأعلى والأولى ، وإنما كلامنا هذا فى رد قول من حرم ما أحله الله ورسوله .

الذكر فى جماعة

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : " أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته " انتهى ، وذكروا أنه رضى الله عنه كان يصلى فى أواخر الصفوف .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً

وفى رواية : على الجهاد ، وهو يجيبهم : ((اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ ، فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ)) .

واحتج المخطئون بما يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال لمن وجدهم يذكرون فى جماعة :

" لقد جئتم ببدعة ظلماً ، أو لقد فقتم أصحاب محمد علماً " ذكره الدارمي والطبراني وأبو نعيم .
ولا يصح عن ابن مسعود فإن في سنده مجالد بن سعيد ولا يحتج به ، قال ابن عدى : " عامة ما
يرويه غير محفوظ " ، وقال الإمام أحمد : " مجالد بن سعيد ليس بشئ " ، وهل مثل هذا تعارض به
الأحاديث الثابتة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ .

وَعَنْ يَعْلَى بْنِ شَدَّادٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ وَعَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ حَاضِرٌ يُصَدِّقُهُ قَالَ : كُنَّا
عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : ((هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ ؟ يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ ، قُلْنَا : لَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَمَرَ يَعْزِقُ الْبَابَ وَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا سَاعَةً ، ثُمَّ
قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّهُمَّ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَأَمَرْتَنِي بِهَا وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ ، ثُمَّ قَالَ : أَبَشِّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ)) رواه أحمد بإسناد حسن والطبراني وغيرهما .

والذكر في جماعة في أيام الحج وفي أيام التشريق متفق عليه .

فإن لم تكف هذه الأحاديث قوماً فهي كافيتنا ، وإنما أمرنا أن نحكم بما أَرانا الله بالدليل ، وليس من
المعقول أن نفكر برؤوس قوم لم يصلوا إلى تحقيق فقه السنة ، وإنما يكتفون بالتفكير البسيط العامي
الذي لا يصبر على التمحيص .

الحسد

وقد زارنا رجل من الصالحين من شنقيط ، وكان دائم التلاوة لكتاب الله عز وجل ، وزار عالماً
ينكر على الطريقة ، فقال له : " يا فلان ، أنت رجل عالم وصالح ، فلمَ لم تكتف بكتاب الله ؟ ودعك
من أوراد الطريقة .

فقال له : وأنت عالم أيضاً ، وهل أوراد الطريقة إلا كتاب الله أو ما أمر به كتاب الله ؟ فلفظ
الجلالة " لا إله إلا الله " هو أفضل ما في كتاب الله وهي ذكر وقرآن في آن واحد ، والاستغفار أمر به
الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أمر بها الكتاب ، وما شغلنا ذلك عن كتاب الله ولا
سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله الحمد .

فقال له : ولمَ لم تأخذ أنت ذلك من كتاب الله والسنة مباشرة ، فتنقني لنفسك ما شئت من الذكر

والدعاء ؟ .

فقال له : وماذا على أن آخذ عمن آخذ عن الكتاب والسنة ، فيكون له أجر الدلالة على الخير ،
ولى أجر العمل ، ولن ينقص من أجرى شيئاً ؟ ولم يفرض ذلك على ، وإنما أنا الذى أعجبنى اختياره
ووثقت به فى علمه وعمله ، وهل بك الحسد أن يعطى الله الشيخ أجر التعليم والدلالة على الخير ؟ .
فقال له : صدقت " .

وليس فى أورد الطريق إلا ما أذن فيه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وما خالف ذلك
فالشيوخ ومن تبعهم منه بريئون ، قال تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ) (٢٠٩) .

أهل الحق

قسّم العالم إلى مؤمن وكافر ، ودع الكافرين .
وقسّم المؤمنين إلى مصل وتارك للصلاة ، ودع من لا يصلى .
وخذ من المحافظين على الصلاة من نهته صلاته عن المنكر فى الأصول والفروع ، فإن للصلاة نوراً
يهدى الله به من يشاء إلى الصراط المستقيم .
فهذا هو مقام التوبة أول مقام فى السير إلى الحق عز شأنه ، فإن لم يكن هؤلاء من أهل الحق فمن ؟
وقد نسب للقوم أمور حققها المنصفون ، فألفوها مكذوبة عليهم ، وقد كذب على المصطفى صلى
الله عليه وسلم .

والأصل فى المؤمن البراءة حتى تثبت إدانته .
ومن المعروف أنه قد دُس على قوم فى كتبهم ما ليس من كلامهم ، بل هناك كتب نسبت إلى قوم
وليس لهم فيها كلمة واحدة ، ولا نعلم أمراً جمعاً على بطلانه يصح عنهم ، أما الأمور الاجتهادية
التي يجوز فيها الخلاف فيسعمهم فيها ما وسع الأمة .

وما يذكر عنهم من اتحاد ، أو حلول ، أو تجسد ، أو تفضيل غير القرآن عليه ، أو التغالى فى

مراتبهم ، أو مخالفة للشريعة ، فالأمر فيه هين .

قد تبين الحق ، وأشرق النهار ، ووضح السبيل فمن كان على عقيدة أهل السنة والجماعة المتفق عليها ، المعلومة للخاص والعام ، ثم عمل على أساس هذه العقيدة حتى أفاض الله عليه من فضله ، فمنَّ عليه بالمحبوبة التي ذكرها الله سبحانه ، وذكرها رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو ممن هداهم الله ، وهو من أهل الحق .

ومن لم يكن على تلك العقيدة ، أو لم يعمل بها ، فهو بمنأى عنهم ، وليس كلامنا عنه .

وإذا فنحن متفقون فى القواعد وقد أمر الشارع بالتحرى فى التطبيق ، قال تعالى : (فَتَبَيَّنُوا)^(١١٠) .

ومن المتفق عليه أن المنكرين على الصوفية ليس لديهم شئ لا يشاركهم الصوفية فى علمه ، وهم أشد حرصاً على الشريعة ، وهم أولى الناس بالله ورسوله على هدى ونور من ربهم ، وهم ورثة الرسل على الحقيقة .

التوسل

التوسل عندهم هو التوسل المشروع ، قال تعالى : (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)^(١١١) : العمل الصالح .

والحب فى الله من أوثق عرى الإيمان ، وثبت أنه لن يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله .

وأولى الخلق بالمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) أخرجه الشيخان والنسائي .

يجبون المصطفى صلى الله عليه وسلم ما استطاعوا ، ولا يرفعونه عن مرتبة العبودية الكاملة - لا ألوهية ولا ربوبية - وهذه المحبة هى أرجى عمل عندهم ، ويتوسلون إلى الله بها ، وهى من العمل الصالح بلا شك ، والتوسل بالأعمال الصالحة مجمع على جوازه عند كافة العلماء ، ونحن مأمورون بحبه صلى الله عليه وسلم أبداً فى حياته وبعد وفاته .

قال الحاكم النيسابورى أبو عبد الله فى كتابه " المستدرک " : " حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ،

٢١٠ - سورة الحجرات ، الآية ٦ .

٢١١ - سورة المائدة ، الآية ٣٥ .

حدثنا العباس بن محمد الدورى ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدينى قال : سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف ، أن رجلاً ضريراً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادعُ الله أن يعافينى ، فقال : ((إِنْ شِئْتَ أَخْرْتُ ذَلِكَ وَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ ، قَالَ : فَادْعُهُ ، قَالَ : فَأَمْرُهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ فيقول : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِ لِي ، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِيهِ)) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، قال الذهبى : على شرطهما " انتهى .

هذا الحديث صحيح لأن رواه من رجال الشيخين البخارى ومسلم ، وقد أولع قوم بمحاولة تضعيف سند هذا الحديث من غير جدوى ، لأن القواعد العلمية لا تساعدكم على ذلك ، فإن كان بعض العلماء لا يعرف رجلاً من رجال السند وكان غيره يعرفه فالحجة مع من يعرفه ، كما اتفق جهابذة السنة والمعرفة بالحديث على صحة هذا الحديث ، ورواه الإمام أحمد وأصحاب السنن والمعاجم ، وقد صرح الترمذى نفسه بصحة الحديث ، وهو الذى ظن بأن الراوى غير الخطمى ، ولكنه ثقة عنده ولذلك حكم للحديث بالصحة ، وقد قال ابن تيمية وغيره من المحدثين : إن الراوى هو الخطمى ، وصرح الرواة الذين نقلوا الحديث عن الخطمى باسمه وهم قبل الترمذى ، فاتفق الفريقان على صحة الحديث .

كلامهم فى التفسير

أما كلامهم فى التفسير فلم يدعوا العصمة من الخطأ ، فمثلهم مثل مفسرى الأمة ، فما وافق الحق فهو حق ، وما خالفه فأخبرنى من ذا الذى قال إنه حتم على الأمة أن تأخذ به ؟ أو لم ينقل عن سيد المحدثين الفاروق رضى الله عنه أنه قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر ؟ .

وأما كلامهم الإشارى ، فهم بأنفسهم لا يقولون إنه تفسير لكتاب الله عز وجل ، وإنما هى خطرات وواردات عند قراءة الكتاب ، لا أنها تفسير له ، وهى أمور سيقت على نسق التشبيه ، وأى حرج على من شبه وارد الهداية الربانى على النفس المتمردة ، برسالة موسى إلى فرعون ؟ .

كلامهم فى الفقه

وأما كلامهم فى الفقه فهو أعلى ما يتصور ، ولا خلاف بين المحققين أنه روح الفقه ، فقه القلوب الحق ، ولنسق لذلك مثلاً فى الوضوء عندهم رضى الله عنهم :

أما الماء الذى يطهر به ظاهر الجسد ، فهو الماء النابع من الأرض ، أو النازل من السماء ، وماء البحر ، ولا بد من طهارة الباطن بالماء الخاص الذى لا يطهر الباطن إلا به ، ومن طهر ظاهره وترك باطنه ملوثاً فقد ترك المقصود الأهم فى الطهارة ، والحكمة أن يقف العبد بين يدي الحق سبحانه مقدساً عن كل سوء ، قال تعالى : (فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٢١٢) .

وقد ذكر من يرى الاغتسال شرطاً فى المماساة أن معنى يطهرن : انقطاع الدم ، ويتطهرن : الاغتسال .

وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) قبل قوله : (وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) ، دلالة على الماء الذى يطهر به الباطن ، التوبة الصادقة :

فيسمى الله سبحانه : حيث الطهارة منه إليه خالصة لوجهه لا رياء ولا علة .

فإذا غسل يديه تاب من معاصى اليدين ، فلا يمدهما إلى ما لا يحبه مولاه .

وإذا تغمض غسل باطنه من شم الحرام وأكله وشربه .

وعند وجهه ، غسل باطنه من مواجهة الحرام والنظر إليه .

وبالغ فى غسل باطنه من إذاية الغير ، عند غسل اليدين فإنهما مظهر البطش .

وفى مسح الرأس غسل باطنه من التفكير فى الحرام والعزم على الحرام .

وعند أذنيه غسل باطنه من سمع الحرام .

وفى رجليه غسل باطنه من السعى بهما إلى الحرام .

وفى الخلاء من قبل غسل باطنه من أن يكشف عورته على حرام .

٢١٢ - سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .

فهذا إذا وقف بين يدي مولاه وقف طاهر الظاهر والباطن ، فمن لم يتوضأ هكذا فما توضأ
الوضوء المطلوب .

ومن كان في مرتبة الاستقامة طوب بالتطهر مما يناسبها من المخالفة ، وكذلك في كل مقام .
فهذا مثل فقهم في وضوئهم رضى الله عنهم ، وعلى ذلك قس جميع العبادات ، ونيتهم في
العبادة امتثال الأمر الإلهي اقتداء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم
سأل علياً رضى الله عنه : ((يَمَ أَهْلُتَ يَا عَلِيُّ ؟ قَالَ : يَمَا أَهْلٌ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))
وهكذا هم ، حتى في عاداتهم فنيتهم فيها مرضاة الله لا شهوات أنفسهم ، وكان سيدى أبو الحسن
الشاذلى رضى الله عنه يقول : " لا تشغلونى عن وردى النوم " ، لأنه ينوى به القوة على طاعة الله ،
ويقتدون به صلى الله عليه وسلم فى نيته التى لا يعرفونها ، فيأكلون ويشربون ويتصدقون بنيته صلى
الله عليه وسلم فى جميع أحوالهم السنية ، والمقصود الباطن .

أما من اقتدى به صلى الله عليه وسلم فى لباسه ولم يقتد به فى أخلاقه فقد ترك المقصود ، وكان
سيدنا عيسى عليه السلام يمثل أحبار اليهود بالقبور المزوقة .

والأهم الاقتداء بسره الشريف ، واللباس الظاهر وسيلة ، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ) (٢١٣) .

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

ليس لديك شك فى أن من وضع يده فى النار احترقت ما لم تحرق العادة ، فهذا مثل علم اليقين ،
فإذا رأيت من وضع يده فى النار فاحترقت ، فذلك مثل عين اليقين ، فإذا وضعت يدك فى نار فذلك
حق اليقين ، (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) (٢١٤) .

وليس من سمع عن أحوال الصالحين كمن رآهم وعاشهم وخبر أحوالهم ، ولا هذا كمن تحقق
فى نفسه بأخلاق الصالحين وأسرارهم ومشاهدتهم ، حتى وصل فيها إلى الذروة .

خليلى إن السائرين إلى العلا
كثير وإن الواصلين قليل

٢١٣ - سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

٢١٤ - سورة التكاثر ، الآيات ٥ - ٧ .

ذهب كل إلى همه في حياته وذهبوا إلى الله .

كالذى سير به حتى وصل	ليس من نوه بالوصل له
طرق الباب وللدار دخل	لا ولا الواصل عندى كالذى
أجلسوه عندهم فى المستهل	لا ولا الداخلى عندى كالذى
سارروه فغدا للسر محل	لا ولا من أجلسوه كالذى
صار إياهم فدع عنك الجدل	لا ولا من سارروه كالذى
ما تبدى بعضه إلا قتل	ذاك شئ علق القلب به

صار إياهم : أى فى شهود العبد حال فنائه ، وهو إذ ذاك معذور لفقده وعيه ، فإذا عاد إلى رشده عاد له الشهود الحقيقى وهو أن الخلق ليست هى ذات الحق وإنما قيومها الحق سبحانه ، (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (٢١٥) .

ملكوت الله على ظهر الأرض

قال صلى الله عليه وسلم : ((إن لله تعالى مائة خلق وسبعة عشر خلقاً من آتاه بخلق منها دخل الجنة)) رواه الحكيم الترمذى عن عثمان رضى الله عنه بسند حسن ، وله روايات .

يصطفى الحق عبده ، فيخلع عنه أثواب النقص ، ويفيض عليه من حلال الكمال ، والحق رحيم فيجعله رحيماً ، الحق كريم فيجعله كريماً ، حليماً ، عدلاً ، عفواً ، وسر في هذا المهيع المبارك بما يليق بمقام العبودية الصحيحة ، أخلاق الكمال بما يليق بالممكن ، ولذلك وصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم بالرؤوف الرحيم ، ووصف المؤمنين (أذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) (٢١٦) .

وهذا هو ملكوت الحق ، وليست عناصره مالا ولا جاهاً ، وإنما هو فضل الله بإفاضة الكمال على عبده ، حناناً منه وزكاة ، هذه القلوب المتصفة بالكمال الربانى هى ملكوت الله على ظهر الأرض .

شغل الناس بالملك والكون ، وشغلوا بربهم سبحانه ، هم المجهولون فى الأرض المعروفون فى

٢١٥ - سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

٢١٦ - سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

السماء ، يسرون بأجسامهم بين الناس وأرواحهم موطنها الملاء الأعلى ، ذكرهم الله فذكروهم ،
فذكرهم فرفعهم إليه ، فهم به له .

((هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْتَقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)) ، فإن لم تكن منهم فكن ، قال صلى الله عليه وسلم :
((أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)) .

اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام ، أن تصلى على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه ، وأن تكرمنا بالإسلام والإيمان والإحسان وحسن الخاتمة ، آمين .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

محمد الحافظ التجاني